مَشَاعِرُ بِطَعْمِ الشُّوكُولَاتَة

قصص

د . محمد لبيب

مَشَاعِرُ بِطَعْمِ الشُّوكُولَاتَة

د.محمد لبيب

رقم الإيداع : ١٠٥٦٣ / ٢٠٢٤

الترقيم الدولي : 1 - 7 - 87358 - 977 - 978



دار جينيال للنشر

ممدوح الجندي

٥٩ ش أنور مع عثمان بن عفان برج المودة - طنطا - محافظة الغربية
تليفون : ٠٤٠٣٣٣٠٩٧٤ / ٠١٠١٠٨١٠١٠٢ / ٠١٠٠٩٣٥٨١٤٩
إيميل : *mamdouhelguindy@yahoo.com*

إهداء

إلـى كل القلـوب البيضـاء التـي تنبـض بِالرِّقَّـةِ والحب، وتدق بالطيبـة والحنـان حتـى وإن تشـققت جدرانهـا وتصدَّعـت، أهـدي هـذه المجموعة القصصية التي أدعـو من خلالها كل الْقُلُوب المُحِبّة أن نتذوق مَعًا المشـاعر بطعم الشـوكولاتة.

كَلِمَةُ الْكَاتِب

في الرابع من نوفمبر من كُلِّ عام، يحتفل العالم بالحب: حب الأب والأم، الأخ والأخت، الزوج والزوجة، الأصدقاء، الأقارب وحب الناس عمومًا، وحب النبات، والحيوان. وحتى الجماد، فما ارْتِبَاطُنَا بالشوارع والأماكن والأشياء إلَّا تعبيرًا عن أسمي معاني الحب، فالحب هو رحيق العلاقات الإنسانية الذي تتنفسه القلوب المُحِبّة للحياة. وإذا كان العالم يحتفل بالحب يومًا واحدًا كل عام، فالقلوب المحبة تحتفل بالحب مع كل نبضة في العروق، ومع كل دقة بين الضلوع. وإذا كان أعظم اختراع تِكْنُولُوجِيَ حتى الآن هو إنترنت الأشياء الذي يبرمج الأجهزة ليجعلها تشعر بك عن بُعْد - ولو عبر البحار- فإن إحساس قلب المحب بالحبيب عن بُعْد يفوق إنترنت كل الأشياء. إنه شعور يجعل من قلب الْمُحِب قطعة

شـوكلاته مغموسـة في مشـاعر مـن حليـب الأشـواق الْمُصَفّـى. ومـا الحـب إلَّا ترمومتـر للمشـاعر الإنسـانية. وبيـن سُـطُورِ هـذه المجموعـة القصصيـة: «قُلُـوبْ بِطَعْـمِ الشُّـوكُولَاتَة»، تلـك التـي تتكـون مـن ٦٥ قصـة مـا بيـن القصيـرة والقصيـرة جِـدًّا، سـتجد كل تلـك المعانـي للحـب. وقـد آثـرت ألَّا أعطـي أسـماء بعينهـا لأبطـال أو أشـخاص معظـم القصـص حتـى يظـل المعنـى أكبـر مـن الأسـماء، فعندمـا تصبـح قلـوب النـاس بطعـم الشـوكولاتة فهـي لا تحتـاج لأن تعـرّف ولا تحتـاج إلـى أسـماء.

د. محمد لبيب

مَشَاعِرُ بأثرٍ رَجْعِيّ

شعرت «مَيّ» بحالة من الغضب العارم الذي ملأها من أخمص قدميها حتى خصلة الشعر التي تتدلّى برِقَّة وتحجل على جبينها مداعبةً نسيم أنفاسها.

بينما هو ينظر إليها بعينين ضاحكتين.. تعجبت من نظرات كمال وكلماته التي لم ينطقها، ومشاعره التي تظن أنها مشاعر منافقة، وهي تهرول في عروقه ذهابًا وإيابًا.

تذكرت أحداث آخر رواية لكاتبها المفضل، ذلك الذي تعشق كتاباته. وشعرت بأنها هي بطل الرواية بلا منازع، وهو ذلك الشاب المنافق في حُبّه طوال أحداثها.

سيطرت على «مَيّ» أحداث الرواية، أتصدق كلمات «كمال» العذبة الحنونة التي يقطرها لسانه؟ أم تصدق إحساسها الذي غاص في عينيه، وأبحر في صدره وشفتيه، فقرأت فيهم عكس ما يقول. أتصدق قلب بطلة الرواية؟ أم تصدق عينيه ودقات قلبه؟ لم تمرّ دقائق قليلة، وبينما هي تبحر في أعماقه، حتى قررت أن تتركه، وتذهب بعد أن ألقت عليه كلمات الغضب التي لم يكن يتوقع أن يسمعها وهو يعبّر لها عن حبه. وبالفعل تركته في بحور تعجُّبِهِ.

توقع «كمال» أن تتصل عليه لتعتذر عمَّا بدر منها، ولكنه انتظر اليوم كله غير مصدق أن صوتها لم يخاطب صوته. شعر بغصة في قلبه، ومرارة في حلقه، ودقات حائرة في عروقه، وعزم على ألَّا يتحدث معها، وأن يواسي قلبه المنكسر. بات ليلته تلك وهو يتقلب على ساعات الليل وحده، وكأنه يتقلّب على جمرات من الفراق.
رغم أن ثورتها كانت هائجة، ورغم أنها تركته يومها ومشت دون أن تودِّعَه، إلَّا أنه شعر بوحدة شديدة تموج في صدره عندما استيقظ في الصباح، ولم يجدها بجواره. لم يعد يطيق فراقها عنه بعد آخر زوبعة فنجان قهوة احتسياه سويًّا.

وضع يديه على صدره يهدهد قلبه، ويواسيه متمنِّيًا لنفسه أن يراها في الصباح عندما تهلّ بوجهها البريء وابتسامتها الرقيقة.
استيقظ مبكّرًا بعد ساعات قليلة حاول أن يغمض فيها عينيه.
عندما أفاق وجد أمامه» مي» وفي حضنها الورد الذي يعشقه.
مدت يديها إليه بوردة بيضاء، ثم بأخرى حمراء وهي تبتسم بشفتيها خجلى، ووجنتيها الحمراوين. لم يصدق نفسه، ومدّ يديه ليأخذ الوردة منها، وقلبه يطير من الفرحة. عندما مَدّ يديه، ولكنه فوجئ بيديه تمسكان بالهواء!
فما رآه كان خيالها الذي يملأ عليه المكان بملامحها وشذى عطرها.

تعجب من نفسه ومن مشاعره، وخيالاته التي جعلته يتحسَّس أديم روحها بجانبه، وكأنها لم تتركه منذ البارحة. نهض من سريره

باحثًا عنها في كل ركن في الغرفة، وباقي غرف المنزل، ولكنه لم يجد إلَّا رائحة ملامحها العطرة التي تفوح في المكان هنا وهناك. تأكد له أنها كانت حلمًا استيقظ منه وخيالها يقف بين يديه مبتسمًا.
شعر «كمال» بضيق شديد في صدره، وبالهواء من حوله يتلاشى، والأرض تدور تحت قدميه، وسقف الغرفة يتصدع فوق رأسه. لا يكاد يصدق أن «ميّ» تركته هكذا، ورحلت ولم تعد لا في المساء، ولا في الصباح.
لم يصدق أنها أرسلت خيالها بدلًا منها ليؤكد له أنها أصبحت خيالًا، وليس واقعًا يدفّئ جواره كما تعود. لم يصدق أن تنتهي العلاقة بينهما بهذه السرعة، وبلا رجعة. صحيح أن زوبعة الفنجان تلك كثيرًا ما تحدث، ولكن لم يحدث مرة واحدة أن غضبت ورحلت وتركته وحيدًا.
هل يا تري أصاب الجمود قلبها تجاهه؟ أم مَلَّتْ فنجان قهوته؟ ظل يحدث نفسه وهو يرتدي ملابسه؛ لكي يذهب إلى عمله حتى وإن كان الوقت مبكرًا ساعة كاملة على ميعاد العمل لعله يخرج ممَّا هو فيه.
استقلّ «كمال» سيارته، وكل حين وآخر ينظر إلى المقعد بجواره غير مصدّق أنها ليست هنا بجواره ككل يوم. شعر بضيق أكثر، فضغط بقوة على بنزين السيارة لينطلق في شوارع المدينة حتى وصل إلى مبنى العمل في أقلِّ من عشر دقائق.
ألقى التحية على رجل الأمن، ودخل المبني سريعًا ليلقِيَ بجسده على مكتبه حتى يأتي الموظفون ليخرج كلّ ما فيه

من ضيق في أوامره ونواهيه لهم. وأغلق باب مكتبه عليه حتى لا يزعجه أحد.

تعجب، كيف يشعر بهذه الحرارة تسري وتفور في عروقه رغم هذا البرد القارص؟! ورغم برودة الجو، خلع المعطف؛ كي يعلّقه على الشماعة هناك وراء الباب.

عادت «ميّ» إلي بيتها الصغير الذي ورثته عن أبيها في أطراف المدينة، ذلك الذي شَهِدَ حبهما وزواجهما منذ عشرة أعوام.. قضيا منها سويًّا خمس سنوات، والباقي كان كل منهما على سفر بمفرده في أمور تخصُّ طبيعة عملهما. أمسكت بالرواية للكاتب الكبير التي أدمنت قراءة قصصه.. تلك التي دائمًا ما تتحدث عن قدرة النفس على اكتشاف أغوار الآخر بعيدًا عمَّا يتفوَّه به. صدقت الكاتب وطبَّقت تلك النظرية الخيالية حتى استقرت في نفسها وصدقتها. وكان زوجها هو ذلك الآخر. تذكرته وما فعلا به منذ قليل، فألقت الرواية من يديها، وألقت بجسدها على سريرها، وانخرطت في البكاء!

علق «كمال» المعطف، وعاد إلى مكتبه والضيق يزداد في صدره. جلس على مقعد مكتبه، ونظر أمامه ليفاجأ بصحبة ورود من أجمل الأنواع والألوان التي يعشقها. تعجب، من أتي بهذه الورود؟ ومتي وكيف؟ على الفور، التقط البطاقة المعلقة بوضوح في سلة الورود ليجد كلمات الاعتذار تزيّنه،

وأحمـر الشـفاه مطبـوع عـلى حـروف توقيعهـا الرقيـق أسـفله.

ابتـسم في نفسـه، وشـعر بروحهـا المبتسـمة تطـوف في المـكان. قَبّـل البطاقـة والـورود، وضمّهـا إلى صـدره بحنـان وشـوق، ثم نهـض يبحـث عنهـا في المـكان، ظنًّـا منـه أنهـا تختبـئ هنـا أو هنـاك لتفاجئـه، ولكنـه لم يجـد لهـا أثرًا. نادى عـلى رجـل الأمـن يسـتبين الأمـر، ولكـن الرجـل نـفى قـدوم، أو وجـود أيّ غريـب في المـكان. تعجَّـب منـه، وتركـه ينـصرف، وبـقِيَ هـو حـائرًا بـين البطاقـة والـورود.

لم تشعر «مَيّ» بنفسها إلَّا ساعة الفجر عندما استيقظت على رنين تليفـون إحـدى صديقاتهـا ممَّـنْ تعـوَّدنَ الاتصـال بهـا وقتما يشـأن ولـو في سـاعة الفجـر ليقصصْـنَ لهـا قصصهـنّ العاطفيـة والعائليـة بـكلّ تناقضاتهـا كما يصـوِّرْنَ لهـا، وهي تسـتمع إليهـنّ بآذان مصغيـة ومتلهفـة.

أنهـت مـع زميلتهـا المكالمـة، بعـد أن أخـذت جرعـة اليـوم مـن القصـص الزوجيـة والعاطفيـة، فقـد تعـوَّدتْ أن تنتـشي بوصفهـا الصديقـة الـتي ترسـو عنـد شـاطئها سـفن مشـكلات الأصدقـاء. وكالعـادة صدقـت القصـة، وحفـرت في قلبهـا مـا حفـرت مـن قناعـات كما يحـدث مـع كل قصـة حـتى امتـلأ قلبهـا بحُفـر مملـوءة بـتراب أحـداث مشـكلات صديقاتهـا الحقيـقي منـه والمصطنـع. وأصبـح قلبهـا وعقلهـا متشـبّعيْن بأبخـرة تلـك الحـكايات والـروايات.

عـاد» كمال» إلى البطاقـة يناجيهـا، ويسـألها: مـن أمسـك بـكِ؟ ومـن أتى بـكِ إلي هنـا، ومـن وضعـك هنـا عـلى مكتـبي؟ أجبـني

أيها الورد، أجيبيني أيتها البطاقة. وكأنها استمعت إلى نجواه، وفوجئ بعنوان مكتوب على ظهرها وتحتها: «أقابلك في المساء هناك في المكان المعتاد بعد أسبوع» وتحت العنوان توقيعها. لم يصدق نفسه، وملأت الفرحة قلبه، ولكن سرعان ما خفق قلبه من سبب ونتيجة، وتوقيت المقابلة. لماذا بعد أسبوع؟ ولماذا في المساء؟ ولماذا لم تأتِ هي بالورود؟ ولماذا لم تكتب حبيبي كما تفعل في رسائلها إليه عندما تكون على سفر؟ انقبض قلبه، ولكن سرعان ما عاد إلى الورود ليقبلها، فيكفي أنها أرسلت الورود، خاصة التي يعشقها. وما أن أنهت المكالمة مع صديقتها، التي هدَّأت كثيرًا هي الأخرى، وتوقفت عن البكاء بمجرد أن أنهت حكايتها، شعرت «مي» بضيق في صدرها، وأن هواء الغرفة يتلاشى حولها حتى كادت أن تختنق. حاولت الاتصال بكمال لينقذها، ولكنها تراجعت.

شعرت بالضيق يعصر قلبها الذي شعرت أنه تحوَّل إلى قمر صناعي يستقبل، ويبث مشكلات أصدقائها من نصف قلبها الأيمن، وقصص روايات الكاتب الكبير الذي عشَّشت في عقلها، ووجدانها من نصف قلبها الأيسر. دارت بها الغرفة، وشعرت بأنها مجرد غلاف جوي لحكايات الآخرين الوهمية، حتى أصبحت تتحدث بلسانهم، رغم أنها تعلم تمامًا أنهم ينسون حكاياتهم بمجرد أن يقصوُّها عليها ويرتاحوا.

قـررت أن تفعـل شـيئًا مجنـونًا حـتى تهـدأ، وتأخـذ هدنـة مـن صديقاتهـا وكاتبهـا. قـررت أن تسـمع لطبيبهـا النفـسي وتتفـرغ لنفسهـا.. تسـمعها وتتحـدث معهـا، وتصبـح هي القمـر الصنـاعي، ولـو مـرة واحـدة لذاتهـا، وليـس للآخـرين.

خرجـت «مَيّ» بعـد الفجـر بقليـل بملابسهـا الـتي نامـت بهـا دون أن تشـعر ليـلة أمـس، وقصـدت أول محـل لبيـع الـورود. اشـترت أجمـل باقـة ورد وحملتهـا كطفـل رضيـع بـين يديهـا. ركبـت سـيارتها الحمـراء الصغـيرة الرشـيقة وأسرعـت بهـا نحـو الطـرف الآخـر مـن المدينـة والـذي يعمـل فيـه زوجهـا وحبيبهـا «كمال». كان الوقـت مبكّـرًا، فـلم تجدْ سـوى رجـل الأمـن كما توقعـت. أعطتـه باقـة الـورد المعلـق بهـا البطاقـة، وطلبـت منـه أن يضعـه عـلى مكتـب زوجهـا، وأن ينكـر معرفتـه بالـورود إذا سـأله. ابتسم الرجـل، وتمنّى في نفسـه لـو تتعلم زوجته من هـذه الزوجة الرقيقة، وترسـل له ولو وردة واحدة، ولو مسـتعملة. تحوّلتْ ابتسامته إلى ضحكة سـاخرة تبخّـرتْ في أعماقـه، وحمـل الـورد، وذهـب لتنفيـذ الوصيـة.

راقبتـه لبضـع دقائـق لتتأكـد، وعندمـا عـاد اليهـا مؤكـدًا بأصبـع الإبهام علامـة التنفيـذ.. ابتسـمت وشـعرت بنشـوة تهز قمرهـا الصناعي الـذي تحـوّل الآن إلى أطيـاف طبيعيـة تلـوّن قلبهـا الـبريء الـذي لوَّثته حُفر الحكايات والروايات.

أخـذ «كمال» وردة مـن باقـة الـورود وعلقهـا في عـروة المعطـف، ونظـر إلى أوراق وردتـه يداعبهـا فخـورًا ومبتسـمًا، وكأنهـا نيشـان أو قـلادة الحـب. وضـع وردة أخـرى في يـده، ومـشى إلى الشـارع يتبختر فيـه كالفـارس المغـوار في هـذا الصبـاح الباكـر بنسائمه العليـلة. ظـل يـدور في الشـوارع القريبـة مـن عمـله مترقّبًـا أن تفتـح المحـلات أبوابهـا ليشـتري لهـا أجمـل هديـة تحبهـا. أخـيرًا حلَّـتِ اللحظـة المرتقبـة، واشـترى الخـاتم الـذي كانـت قـد أشـارت إليـه مرة بعفوية وهو يشتري لها آخر هدية.

مَـرّ الأسـبوع بدونـه ثقيلًا على «مي».. فلم تقـرأ من روايات كاتبها الكبير شيئًا، ولم تسمع حكايات أصدقائها، فهي لم تتعوّدْ أن تكون هكذا بمفردها. ولـولا أنهـا تسرعـت وكتبـت له في البطاقـة: «نتقابـل بعـد أسـبوع»، ولـولا أنهـا أخـذت باستشـارة معالجهـا النفـسي، ولـولا أنهـا تذهـب إلى العمـل يوميًّـا، وتقـضي هنـاك معظـم وقتهـا ليشـغلها، لكانـت اتصلـت بـه عـلى الفـور لتقابـله، فقـد اشـتاقت إلى ملامحـه الطيبـة، وإلى كلماتـه الرقيقـة الـتي كانـت تتركهـا وتغـوص في أعماقـه لتصطـاد شـيئًا مـا يُشـفي دوافعهـا الثـائرة؛ ولكنهـا لا تسـتطيع أن تصطاد شيئًا في كل مرة.

مـرّ عليهـا الأسـبوع ثقيـلاً، ولكنهـا اكتشـفت فيـه أنهـا قـد وقعـت في بحـور غرامـه، كما لم تقـع مـن قبـل. تعجبـت مـن مشـاعرها نحـوه، تلـك الـتي تحوَّلـتْ فجـأة مـن التنمُّـر إلى الاشـتياق.

ولما حانت لحظة اللقاء التي حددتها، ارتدت الفستان الأبيض المزين بفراشات زرقاء صغيرة ورقيقة، ونثرت العطر الذي يعشقه على عنقها، واختارت حقيبة اليد البيضاء التي كانت أول هدية منه، وزينت عنقها بإيشارب وردي رقيق، وزينت شفتيها بابتسامتها الرقيقة التي أغنتها عن وضع أحمر للشفاه. أدارت محرك سيارتها الحمراء، وأدارت محرك أنفاسها وقلبها، وأطفأت محرك عقلها، وذهبت إلى المكان الذي حدّدته له بعينيها الخضراوين، ووجنتيها الناعمتين كبشرة طفلة مدلّلة.

وصل «كال» إلى الكافيه الذي يحمل ذكريات أول لقاء بينهما منذ عشرة أعوام. تعمَّدَ أن يصل إلى المكان ساعة كاملة قبل الميعاد، لا يدري لماذا.

قلبه يرتجف من مشاعر خليط من الفرحة والقلق. فرحة اللقاء وقلق ممَّا سوف يحدث أثناء اللقاء. اختار طاولة خلف الزجاج المُطِلّ مباشرة على الشارع ليراها وهي قادمة بسيارتها الحمراء. وضع الهدية على الطاولة التي اشتراها خصّيصًا لهذه اللحظة، وبجوارها أحدث روايات الكاتب المفضل إليها. تذكر تلك الليلة القاسية، فتسلل إلى قلبه بعض من القلق، ثم تذكر ذلك المساء الذي تركته فجأة بلا اعتبار لمشاعره المُحِبّة التي كانت تفوح من عينيه وكلماته.

تذكر ذلك الصباح الذي رآها فيه حُلمًا جميلاً وهي تمُدّ لها

يديها بالورود قبل أن يفيق من حلمه. ولكن شعور القلق تبدَّد قليلًا عندما تذكر الورود الحقيقية منها على مكتبه في الصباح نفسه. صحيح أنها لم تعتذر، ولم تكتب أيَّ كلمات حبٍ، إلّا أن الورود تكفي عن كل اعتذار.

نظر إلى العُلبة الصغيرة، وبها الخاتم الهدية الذي كم يود الآن أن يزين به أصبعها الرقيق! تعجب، كيف له أن ينسى تجميل الهدية بالورود التي تعشقها؟ جرى نحو بائع الورد ليشتري الورود التي تحبها.

حمل الورود بإحدى يديه والهدية بيده الأخرى، ومعها رواية كاتبها المفضل. جلس على الطاولة خلف الزجاج يترقب وصولها في الميعاد. مر الوقت ببطء، بينما هو يترقب سيارتها الحمراء. فجأة لاحظ دخول بعض من صديقاتها المقربات للكافتيريا، فتعمَّد ألَّا يرونه حتى يتفرغ تمامًا لمجيئها. وفي الوقت نفسه شعر بضيق وقلق من وجودهن، خاصة أنه يعلم كم هي مرتبطة بهن ارتباطًا وثيقًا، وخاف أن يفسدن عليه لحظة اللقاء.

أخيرًا، لمح سيارة حمراء قادمة من بُعد، فتأكد له أنها سيارتها، فهو يعرف صوت محركها تمامًا كما يعرف صوت أنفاسها، وصوت نبضات قلبها عن بعد. وبالفعل كانت هي بِطَلَتَهَا وابتسامتها وأنفاسها التي عطرت المكان كله بأريجها. وقف وراء الزجاج كالمراهق الخجول يترقب قدومها قبل أن يفاجئها بالورود والخاتم والرواية.

وما أن دخلت الكافية حتى رأتها صديقاتها، فجَرَيْن نحوها كالأطفال التي غابت عنهم أمهم طيلة أسبوع كامل بدون رضاعة. علت أصواتهن فرحات بها ومهلّلات. امتدت أيديهن ليحتضنَّها ويقبلْنها، فقد جاءت في الوقت المناسب، فكل واحدة منهن لديها ألف حكاية لتقصّها عليها ليرتحن كما تعوَّدْنَ. نظر إليهن، فشعر بضيق في نفسه؛ خوفًا من إفساد اللقاء مع حبيبته. تعجَّب، من جاء بهنّ في نفس توقيت لقائه معها. هل هي التي أخبرتهن بموعد اللقاء ليكنَّ شهداء عليه، أم هي الصدفة التي أرادها القدر أن يختبر مشاعرها نحو حبيبها وصديقاتها في وقت واحد. وعلى غير عادتها في كل مرة من قبل، قابلت «مي» ثورة الفرحة في أعين صديقاتها بهدوء شديد وفتور.

تعجبن، فكيف لها أن تقابلهن بهذا الفتور الشديد رغم أنها كانت في كل مرة من قبل تطير بهنّ فرحًا وشوقًا لحكاياتها. تعجب هو الآخر لماذا لقاؤها معهن كان مختلفًا هذه المرة. ولكنه ظل مختبئًا يترقب.

سألوها: أين كنت يا «مي»؟ لدينا الكثير من الحكايات. ردت بهدوء وابتسامة، ولكن اليوم هو لحكايتي أنا التي كنت قد نسيتها، وأهملت قراءة سطورها، حكاية العمر كله. تعجبن من ردها، وتساءلن في آن وصوت واحد: وأين رواية

كاتبك المفضل التي تحملينها معك في كل لقاء كعادتك.
ردت بابتسامة: اليوم سألتقي مع كاتبي الحقيقي، وبلا روايات، فهو روايتي وقصتي وحكايتي.
كاد قلبه أن يقفز من صدره، ويطير محلّقًا في المكان فرحاً ممَّا يسمعه منها، فقد كان قريبًا منهن وسمع الحديث كله بوضوح.
تعجب، ما السر وراء ذلك؟ فهي المرة الأولي التي يراها هكذا، ويسمع منها هذه الكلمات الرقيقة، ومن وراء ظهره.
ولكنه شعر بلمسة أنين وحنين بين حروف كلماتها.
شعر بشيء ما يلوّن شفتيها بألوان الطيف.
ورغم الفرحة العارمة بكلماتها ومشاعرها التي أضاءت قلبه إلّا أن قلبه أراد أن يقفز من صدره ليُقَبِّلَها ويحتضنها، ويتلو عليها مشاعر حنينه حتى تملأ الفرحة وجنتيها ومقلتيها، وليسألها عمَّا يدور في خلدها.
تعجبن من طريقة ردها وكلماتها وملامحها، إنه نقيض لكل مرة سابقة. أمسكت إحداهن بيد «مي»، وجذبتها بدعابة لتجلس معهن كما تعوَّدْن، ولكن جذبت «مي» يديها برفق، وابتسمت واستأذنت، وهن في حالة من الذهول، هذه ليست «مي» التي نعرفها، أهي منومة مغناطيسيًّا؟
أخذت «مي» تدور بعنقها في المكان باحثة عن كمال، ولكنه ما

زال مختبئًا هناك، وهائمًا في كلماتها ونبضات قلبه التي تنبض بالحب والقلق والخوف من شيء لا يعرفه. أفاق على نبض قدميها في المكان، باحثة عنه كالطفلة المشتاقة لحضن أبيها. أقبل عليها بعينيه وقلبه، ومد يديه بعفوية ليمسك بيديها، مُقَبّلًا رأسها ووجنتيها. سلمت يديها لراحتيه، وشعرت بقبلاته تسري في أديمها وعروقها، كما لم تشعر به من قبل. أراحت رأسها على صدره لتقبل دقات قلبه الحنون قبل أن يأخذها للطاولة لتبدأ طقوس اللقاء، فكم هو في شوق لينصت إليها!

قدم «كمال» لها الهدية والورود، والرواية، وعيناه تُبحران في عينيها يترقب رد الفعل في نظراتها. طبعت «مي» قبلتها على الهدية والورود، وأمسكت بالرواية واستأذنته أن تضعها في مدخل الكافتيريا لمن يقرأها كذكري لهذا اللقاء.

تعجب من رفض الرواية برقة وذكاء، رغم أنها تعشقها. سألها: لماذا يا «مي» لم تحتفظي بالرواية، وهذه أول مرة أقدمها هدية لك. وهو مازال يبحر في عينيها التي تبدو اليه كشاطئ عصفت به امواج المد والجذر سألها، حبيبتي أراك اليوم زوجتي وطفلتي. زوجتي التي طالما تمنيت أن تنصت لمشاعري وطفلتي التي لم يشأ القدر أن يرزقنا بها. هل تحبينني يا «مي»؟ وهل أنا زوج لك أم حبيب؟

نظرت «مي» إليه نظرة تحمل في طيَّاتها كل الأجوبة التي يبحث عنها، ويتلهف إلى سماعها. وقبل أن تجيب أخذت الرواية، ووضعتها في بهو الكافتيريا مع باقي المؤلفات الموجودة هناك بعد أن كتبت عليها «إهداء من مي إلي كل الباحثين عن الحب خارج الروايات والحكايات». عادت إليه لتمسك بيديه لتجيبه، كنت زوجي، واليوم أنت زوجي وحبيبي وعشيقي. أما الرواية فلم أعد أحتاجها بعد اليوم؛ لأني أحتاجك أنت.

قبَّل يديها، وشعر بفرحة عارمة تسري في عروقه بمشاعرها التي يسمعها منها لأول مرة منذ زواجهما. لن أسألك حبيبتي عن سبب تحوّل مشاعرك من زوجة لحبيبة، ولكني سعيد، وسأبقى لك طول العمر الزوج والعاشق والحبيب. وما أن سمعت منه «طوال العمر» حتى ذرفت عيناها دمعات لم تستطع أن تمنعها أن تتساقط على وجنتيها.

شعر بالقلق نحو تلك الدموع، تساءل وهو يجفف لها دمعاتها:

لماذا الدموع حبيبتي؟

ردَّتْ وهي تنظر في سماء عينيه، دموع الفرح واللقاء حبيبي.

قبّل يديها ووجنتيها منتشيًا بمشاعرها، فقد كانت قوية ورائعة وهي تخفي عنه السر الكبير بأن اليوم قد يكون آخر لقاء للعشاق بعد أن اكتشفت إصابتها منذ أسبوع بالمرض اللعين في اللحظة نفسها التي اكتشفت فيها عمق حبها لقلبه وعقله

ومشـاعره. تعجبت مـن مشاعرها، أهـو الحـب الـذي مـلأ قلبهـا لـكمال بعـد أن علمـت بمرضهـا اللعـين، فاكتشـفت كم كانـت جاحـدة لحبـه، أم هـو الحـب الـذي مـلأ قلبهـا بعـد أن تركتـه آخـر مـرة؟ أفاقـت عـلى «كمال» وهـو يناديهـا: أين ذهبـت يا «مَيّ»؟ ردَّتْ عليـه: لم أسـافر حبيـبي، ولكـني كنـت أفكـر في القـدر الـذي يقـرر تنفيـذ أحـكام الحـب في قلوبنـا أينـما وكيفمـا يشـاء. أخـرج الخـاتم مـن العُلبـة ليضعـه في أصبعهـا وهي تصب في عينيـه، وبأثر رجـعي كل حُـبّ وحنـان السـنوات الـتي قـد مضت. قبّلها برقَّـةٍ وعذوبـةٍ هامسًـا في أذنيهـا، لـك حـبي وحنـاني طوال العمر حبيبتي.

همست في أذنه مبتسمةً من الألم: كلي لك حبيبي.

أقبـل النـادل بالمـشروب المفضـل لديهـما لتبـدأ قصـة حـب لم تنتـه.

مشاعر بِطَعْم الشُّكُولَاتَة

هبَّتْ على قلبه نسائم الحنين إلى الزمان الذي طالما يَحْنُو إليه، وإلى المكان الذي كان يكسوه بالأمان، فتذكَّرَ صندوق الذكريات الذي يلملم فيه كل ما يذكره بأيام الزمن الجميل، ذلك الزمن الذي مع كثرة تصاريفه - فإنه لم يشعر فيه أبدًا بالوحدة. فتح الصندوق العتيق، وأول ما لمست أنامله كانت صورة تجمعه مع كُلِّ الأحباب، صورة تتناثر منها الابتسامات بالرغم من مرور عشرين عامًا كاملة عليها. وما أن لمس الصورة حتى شعر بالابتسامات والضحكات البريئة تملأ المكان حوله بروائح البهجة، ونسائم الصحبة التي تجدد الحياة فيه دون أن يدري. وما أن لمس الوجوه الضاحكة في الصورة حتى سرى في جسده تيار من المشاعر الحانية التي تأجّجت جَذْوتها حتى جعلت من قلبه سماءً صافية مزيّنة بنجوم تشعّ بالأمان، دقّاته تنبض بالطمأنينة والابتسامات الصافية. ودون أن يدري، نَسِيَ الزمان والمكان حواليه رويدًا رويدًا، وعاش الزمان الذي يهفو إليه، والمكان الذي طالما شعر بالحنين إليه، وانتقل بمشاعره إلى عالمه الخاص الذي يجعل من عينيه الضيقتين الدامعتين نافذة يرى منهما العالم أجمع.

سرت في جَوَانِحُهُ مشاعر تفيض بالحب، والحنين، والشوق إلى الزمن الجميل. مشاعر أفاضت حلاوتها في قلبه، فجعلته كقطعة شوكولاتة سويسرية بكل نكهات السكر في العالم. نكهة حلاوتها تجعل كل من حوله يتمنى لو يلتهم قلبه التهامًا. هو نفسه شعر بحلاوة قلبه، فاستغرب نفسه، وابتسم متعجبًا. فكيف لخيال المشاعر أن يجعل من العينين المتعبتين سماءً ترى العالم أجمع؟ ومن القلب متّكئًا لكلّ باحث عن الأمان والطمأنينة والحب؟ وقبل أن يغوص في عالمه وتعجّبه، أفاق على يد حفيدته الصغيرة وهي تُمَسِكُ بقطعة شوكولاتة في محاولة منها ببراءة الطفولة أن تدسَّها بين شفتيها، بينما هو مستغرقٌ في نوبة حلمه بالزمن الجميل. نهض من على أريكته، وقد انطبعت على وجهه ابتسامة عريضة تملأ ملامحه النائمة جعلت حَفِيدَتَهُ الصغيرة تجري أمامه وهو يحاول اللَّحَاق بها، وكأن العالم كله يعدو أَمامه ضَاحِكًا حاملًا على كتفيه الزمن الجميل!

مشاعر قَلْب آيِلٍ لِلسُّقُوط

تربَّى على يديها، وتعلم منها كيف يكون الحب. عَلّمتهُ كيف يَكُونُ الْحب، كيف يكون العطف والحنان، وكيف تكون السماحة والغفران، وكيف لا وهي أُمُّهُ حبيبته. تعلم منها أن يكون صَلْدًا قويًّا .. كانت في عِزِّ قسوتها عليه تفيض حنانًا. علّمته كيف يكون رجلًا وهو طفل صغير، وكيف يكون طفلًا وهو رجل كبير.

رافقها كصديقة وحبيبة وأخت قبل أن تكون أمًّا، حتى أصبح يَشُمُّ رائحة كَلِمَاتِها، ودعواتها، وعبير ابتساماتها معه أينما حَلَّ حتى في بلاد الغربة البعيدة.

وظلت هي له كما هي، بقلبها الحنون، ودعواتها الصادقة التي لا تنقطع، وبقلبها الذي لا يعرف سوى الخوف عليه. طفلة عندما تنتفخ أوداج رجولته، وصديقة عندما تجفّ مشاعره، وأختًا عندما تهتز أوتار عقله، وناصحه له تنير له دربَهُ. بعُدت عنه، ولكنها لم تغب. وبعُد، ولكنه ينام ويصحو في أركان دعواتها، افتقدها وافتقد دعواتها وطعامها الشهي، وجلوسه معها، وافتقدته حتى بكت الغربة وتمنَّتْ لقاءَهما. وبعد عراك مع الغربة، قرر العودة إلى الديار، وأراد أن يفاجئها.

عاد والفرحة في صدره بِزَخَمِ فرحةِ ألف طفل.
دقّ الباب، فلم يفتحْ له أحد....
فتح الباب، فلم يسمع صوتها بالدار، استنشق عبيرها في كل ركن من أركان البيت الذي شهد طفولته وريعان شبابه، والضحكات والبراءة.. حتى الخلاف معها كانت تفوح منه رائحة الوُدّ.
بحث عنها في كل ركن، ولكنه لم يجدها. لم يجد في طرقات البيت سوى آثار أقدام كانت هنا.. وآهاتِ ألمٍ كانت هناك، ودعوات قلبها له المعلّقة على الجدران.
ظل يبحث عنها غير مصدّقٍ رحيل أمه.
هرول نحو الباب الذي كان قد أغلقه..
فتحه على مصراعيه لعل أحدًا هناك يسمع صراخ قلبه ندمًا على كل لحظة لم يعِشْها معها وهو بعيدٌ .. هناك في بلاد الغربة.
وقف على الباب وحيدًا بعد منتصف الليل، فلا أحد يسمع صرخات القلوب.
جال بالبيت، ولم يَدْرِ إلَّا وهو أمام صورة لهما على جدار غرفتها. هي في كامل زينتها عندما كانت شابة تبدو كملكة جمال وهو طفلٌ صغيرٌ يمسك بكَفّيْها، وكأنّه يخشى من ضياعها .. انسابت دمعاته من مقلتيه على وجنتيه. تمنّى لو بَقِيَ في الصورة للأبد، يكبُرُ هناك بجوارها حتى لا يغيب عنها، وحتى لا ترحل عنه مهما باعدا بينهما الزمان.

حكايةُ مَشَاعر

رغم أني كنت أرى وأسمع وأشعر بآلام أخي الذي يسكن بجواري، إلَّا أنني لم أشتَكِ يومًا طوال عمري الذي يقارب الخامسة والأربعين من ألم، أو جرح، أو التهابات.

ومع كل نوبة ألم كانت تعصف بأخي، كنت أتألم لألمه، وأسهر على سهره، وأسمع شكواه إلى ربه بأن يخفف عنه الآلام المُبرحة التي تنهال عليه كمطرقة حديدية بحجم السماء.

كنت أرافق أخي في كل زيارة إلى طبيبه الخاص. رغم أن الخوف والهلع كانا يتملكانه في كل مرة أذهب فيها معه إلى العيادة. أنا أصغر قليلاً في الحجم والعمر منه، ولكني أبدو دائمًا بحمد الله بحالة صحية جيده. رغم أننا نسكن بيتًا واحدًا، ونأكل طعامًا واحدًا كحال باقي أفراد العائلة في الدور الأرضي، أو العلوي. كنت أتعجب دائمًا، لماذا أخي فقط دون باقي أفراد العائلة، التي تتكون من اثنين وثلاثين فردًا، هو الذي يصاب بالالتهابات والآلام الشديدة؟! أما أنا، فلا يحدث معي مثل ما يحدث له. ولعجزي عن الإجابة عن هذا السؤال المتكرر أقنعت نفسي أنها الجينات هي التي تحدّد صحة كلّ فرد في العائلة الواحدة.

وفي وسط الليل كان مساءه شديد البرودة، وغزير الأمطار. وكأن الأرض والسماء اجتمعتا على معاقبة البشر الذين يسكنون هذه المدينة، استيقظت على صراخه وتأوّهاته من آلام مبرحة، جعلت كل من في البيت يستيقظ، ويدعو له بالشفاء. ازدادت درجة حرارة جسمه وتشنُّجات عظامه، ولم يهدأ إلَّا بعد أن تمّ حقنه بمخدرٍ فعَّالٍ بعد دقائق من وصوله إلى عيادة الطبيب.

كنت أحبه كلَّ الحب، فهو يعمل في صمت وهدوء رغم آلامه. وأعتبره المثل والقدوة في التحمُّل والصبر. وأتمنى شفاءَه، وكنت دائم الدعاء له؛ لعل آلامه تنتهي، ويُشْفَى من أمراضه. ولكن هذا اليوم كان قاسيًا.. كالنار الحامية، والزمهرير الصقيع، وكالرعد والبرق في يوم ريح عاصف. شعرت بالخوف والقلق الشديد على أخي والطبيب ينادي على الممرضة، ويطلب منها أن تأتِيَ له على الفور بـ « كمَّاشة» حادّة وقوية.

كان المنظر مرعبًا، بينما راقبت أنا أخي بجواري، ذلك المستسلم تمامًا للطبيب بعد أن فقد الوعي؛ بسبب تلك الحقنة التي عرفت أنها الساحر الذي يطلقون عليه «المخدر»، أو «البنج». بدأ الخوف يَدِبّ في كلِّ جزء من جسدي، وبدأت عظامي تئزّ وترتعد خوفًا على أخي، ذلك الذي أصبح بين الحياة

والموت... فجأة، أمسك الطبيب بالكماشة، وكاد قلبي أن يتوقف عن النبض من هول ما رأيت.

فبعد أن أمسك الطبيب بالكمَّاشة اقترب من أخي طريح الفراش.. المغيّب تمامًا عن الوعي، ثم أمسك به بقوة، وكأن بينهما عداءُ السنين.

قبض على عنق أخي بكل عزمه حتى استطاع أن ينتزعه من مكانه بعد ثوان قليلة من الإمساك به. كادت روحي أن تخرج مع جثة أخي، والطبيب ينتزعها نزعًا وكلّه فخر وانتصار بما فعل على مَرْأى ومَسْمَع مني، وكل الموجودين. كدت أُجَنّ، كيف للطبيب أن يفعل ذلك علانية، ويقوم بقتل أخي أمامي، وأمام الممرضات ومساعديه؟!

كيف لهذا الطبيب القاسي القلب أن يقتل أخي بهذه البساطة، وينتزعه من مسكنه، ويمثّل به بتلك البشاعة، ثم يلقي بجسده في سلة المهملات في زَهْوٍ شديدٍ؟! وكيف بعد كل ذلك يقوم بصرف علاجٍ لي؟ وكيف لي أن أظل صامتاً بلا حراك، فاقدًا القدرة في الدفاع عن أخي؟!

ورغم الثورة التي انتابتني، والغضب الشديد من قسوة هذا الطبيب، إلا أنني استسلمت تمامًا ليديه، ولم أستطع أن ألقي نظرة أخيرة على أخي وهو ملقى في سلة المهملات.

حدث هذا الموقف الذي لن أنساه ما حَييت منذ عشر سنوات

كاملة أخذت فيها العهد أن أقوم بالعمل نفسه الذي كان يقوم به أخي في صمت وهدوء. وعشت على هذا الحال حتى حدث ما لا تُحمد عقباه. ففي ليلة أشد بردًا ورعدًا شعرت بالآلام نفسها التي كانت تصيب أخي، وكأن أخي ترك تحتي قبل أن يرحل بعضًا من جذور آلامه. ازدادت الآلام المبرحة والالتهابات، ولكن لم يكن أخي بجواري كما كنت أنا بجواره. كم تمنيت أن يكون هنا كسند يشدُّ من أزري كما كنت أفعل معه! شعرت بالحزن والخوف والقلق والهَمّ، وخفت من نفس نهاية أخي علي يد الطبيب القاسي نفسه. حاولت أن أتمالك نفسي من الآلام والوجع، ولكن كلما تحاملت ازداد الوجع حتى صرت أصرخ بلا انقطاع. تمنيت بسبب الآلام المبرحة في هذه اللحظات القاسية أن يقتلعني الطبيب من جذوري ليخلصني من الألم، فعندما يشتد الألم يكون الموت أهون. ولما صرخت من شدة الألم، أخذوني للطبيب، الذي استقبلني بالابتسامة الصفراء نفسها التي استقبل بها أخي منذ عشر سنوات، قبل أن يقضي عليه، وينتزعه من جذوره، ويلقيه بكل بساطة في سلة المهملات. ورغم أني تمنيت في تلك اللحظات أن يكون مصيري مثل مصير أخي حتى أنتهي من آلامي، إلَّا أني دعوت على الطبيب ومن يرافقه كل الدعوات الشريرة الممكنة. فهو قاتل أخي، وأخشى أن يكون قاتلي. إنه طبيب لا يعرف كيف يداوي، بل يعرف فقط لغة القتل مع سبق الإصرار والترصد! استسلمت ليديه ليفعل بي ما

يشـاء، كل مـا أريـده فقـط هـو أن يريحـني مـن آلامي ولـو بالقتـل!
وفي لحظـات معـدودة وجدتـه يحقنـني بحقنـة البنـج اللعينـة نفسهـا
تلـك الـتي حقـن بهـا أخي منـذ عـشر سنوات، ففقـدت الـوعي تمامًـا
ولم أشـعر بنفـسي إلا وأنا بـين يديـه.. وألفيْتُـهُ ينظـف مـلامح وجهي
بقطعـة قطـن بهـدوء وسـكينة وابتسـامة بألـوان إشـارات المـرور!
أفقـت عـلى كلماتـه البسـيطة وهـو يقـول بثقـة: حمـدًا لله عـلي
السـلامة، وسـوف نسـتمر في العـلاج بعـد أن تم حشـو الجـزور
ومعالجـة العـدوي البكتيريـة، أنتظـركم الـزيارة القادمـة بعـد
أسـبوع لإنهـاء العـلاج، وإجـراء بعـض العـلاج التجميـلي
حـتى يتمتـع بصحـة جيـدة، ويسـتطيع العـودة للعمـل بكفـاءة.
وقبـل أن نـترك العيـادة، سمعـت صـوتًا رخيمًـا هـادئًا مملـوءًا بالحنـان
أعرفه جيّدًا.. كان صوتًا قادمًا من جانب الغرفة يريـد الاطمئنان على
صحتي، وأن يتأكـد للمـرة الثانيـة من أني بخير. وتحت تأثير هذا الصوت،
واستجابة لنـبرة القلق الممزوجة بالحنان، ألقى الطبيب نظرة أخيرة عليّ.
تحسـس جسـدي بقطعـة معدنيـه تلمـع بـين يديـه تحـت أضـواء لمبـة
الكهـرباء الـتي تعلوني، وتسلط ضوءهـا الشـديد عـليّ عـن قصـد وبقوة.
بعـد أن دقـق النظـر مـن وراء النظـارة الطبيـة الشـفافة الـتي تغـطي
نصف وجهـه، تنهَّـد برفـق وهـدوء قائـلًا وهـو لا يزال ينظـر إليّ: حالتـه
الآن جيـدة، ومـن الممكـن أن يبـقي عـلى قيـد الحيـاة عـشر سـنوات

أخري بشرط أن يعتني بنفسه، ويداوم على زيارتي من وقت لآخر. سمعت هذا الكلمات وكأني في حلم وُلدت فيه من جديد. بدأت أفيق من هذا الحلم رويدًا رويدًا، ولم أصدق أني على قيد الحياة إلَّا بعد أن شعرت بنفسي في مكاني في الفك السفلي بلا أيِّ ألم. تعجبت كيف استطاع الطبيب أن ينقذني وهو الطبيب نفسه الذي قتل أخي. تعجبت كيف لليد نفسها التي قتلت أن تساعد في الشفاء، بل إحياء جسد كان يشرف على الموت. وفي هذه اللحظة الغالية التي تساوي العمر كله والتي كنت أفضِّل فيها الموت عن الآلام، شكرت الله وشكرت الطبيب ومعاونيه وبدت كل الابتسامات رائعة.

وفي هذه اللحظة ترحّمْتُ على أخي، وعاهدت نفسي أن أهتم بصحتي، وأنسي كل ما كان، وأبدأ حياة جديدة أنا وإخوتي.

وفي هذه اللحظة التاريخية ناديت بأعلى صوتي على بقية أفراد عائلتي في فمنا المصون أن يحافظوا على بعضهم بعضًا، وأن يحافظوا على صحتهم أوّلًا بأول، وأن يبوحوا بالألم في وقته، ولا يكتموه، ففي التعبير عن الألم حياة.

ناديت على صاحب الدار أن يهتم بصحة فمه، ولا يعرِّضَ أهل بيته للهلاك، فإن هلكوا ندم حيث لا يفيد الندم. ومنذ تلك اللحظة أصبحت زائرًا لعيادة الطبيب من وقت لآخر، والعجيب أن قاتل أخي أصبح أعزَّ أصدقائي!

قِطَارِ الْمَشَاعِرِ

لحق بالقطار في آخر لحظة. وما أن صعد السُلّم حتى تنفس الصعداء. الآن قد نفّذ قراره الذي تردد فيه كثيرًا بالرحيل عن مدينته، وكل ما يُذَكِرَه بآلامه وإِخْفَاقَاتِهِ.
أخذ مِقعَدَهُ، وتكَوّم في نفسه، واستسلم لموجةٍ هادئة من الأفكار. غَشَيَه النُعاس، فقد كانت محطته البعيدة جِدًّا قبل الأخيرة. أفاق على يد تهزُّه برفْقٍ: محطتك القادمة يا بُنيّ. ابتسم للرجل المُسِنّ من وراء عينين مُجهدتين.
فَرَكَ عينيه، ونهض برفق ليستعد للنزول ليبدأ مشوار حياة جديدة في بلد لا يعرف أحدًا فيه، ولا يعرفه أحد، وهو ما كان يريده عن قصد. هبط من المحطة وهو مُنْتَشٍ. فوجئ بنفسه في المحطة التي هرب منها. وما أن قرأ اسم مدينته على يافطة المحطة، حتى تلعثم، وشعر وَكأن الأرضَ تَمِيدُ بِه. شعر بِحَسْرَة تَهتِكِ أحشاءه، وبأن القدر لا يريد له الفرار. ثم اكتشف أنه قد ركب دون أن يدري القطار المعاكس من محطة العاصمة. عاد إلي بيته يَجُرُّ قدميه حتى يفيق من الصدمة ويستطيع أخذ قرار جديد، قد يكون بعد عدة أشهر أو سنوات، أقصد أو لا يكون.
زَفَرَ الصعداء التي كان قد تنفَّسها عندما لحق بالقطار محدّثًا نفسه في حيرة: «يا الله! وكأن القرارات المصيرية لها أيضًا لحظة ميلاد.»

مشاعر من نور

والفرحةُ تتبختر في عينيه، سألها: كيف أبدو في حُلتي الجديدة؟ مالت عليه بابتسامة تتراقص على شفتيها، وأناملها تتحسس ياقته البيضاءَ، وتصفف خصلات فرحته: تبدو جديدًا جِدًّا كلما احتضنتني نظرات عينيك الحانية. تبدو وكأن الرجال خُلقوا من صَهْدِ همساتك.
قبَّلَ جبينها بحنان ملأ الفضاء، وهمس لها:
وأنت تبدين في كل لحظه أجمل النساء.
أخذ بيديها لقضاء نزهة جميلة سوِيًّا، فاليوم يحمل ذكرى زواجهما. وبعد انتهاء النزهة التي سرقا فيها ساعات الزمن، واستدعوا أجمل الذكريات الحالمة، وتلصّصوا على حلو الذكريات القادمة، تأبَّط خصرها النحيل، وقبَّلها على جبينها فوق عينيها الزرقاوين، ثم ذكَّرها بموعد ذهابهما لطبيب العيون على آخر أمل في عودة بصرها الذي وهن أثناء رحلة الحياة.
ابتسمت له في حياء وسعادة، وأمالت رأسها على صدره وتحسست عينيه بأناملها، وهمست في أذنيه: أنت عيناي اللتان أرى بهما جمال العالم، أما عيناي فلو عادتا لرأيت واقع العالم. فكن لي دائمًا بصري وبصيرتي.
ضمها بحنان بالغ ورقة، واحتواها بين ذراعيه، ومشيا سوِيًّا على الطريق.

ملاكٌ بلا أجْنِحَة

وفي عِزّ نومها قفزت من على سريرها الدافئ في هذا البرد القارص، فوجدت جسدها ما زال دافئًا، وتدب فيه الحياة. وهي التي كانت تعتقد أن جسدها أصبح بلا قطرة دماء بعد أن تناثرت الدماء من جسدها وبعد أن أطلق أحدهم رصاصات الغضب عليها. تنفست الصعداء، فقد كان كابوسًا كادت أحداثه أن تمزق جسدها وروحها إربًا. ورغم أنها تأكدت من أنه كابوس بلا رصاصات وبلا دماء، إلَّا أنها أرادت ذلك التأكيد. نظرت حولها باحثة عن أحد قد يكون مختبئًا هنا أو هناك، ولكنها لم تجد إلا نفسها وحيدة.

ألقت نظرة على جدران حجرتها بديكوراتها الوردية التي تفننت في اختيارها من بين عشرات الديكورات لتملأ حياتها بهجة وطمأنينة، فوجدتها تزهو بلا خدوش، ولا نقطة دم واحدة! فتشت في باقي الغرف بحرص، فلم تجد شيئًا هناك سوى ظلها يتبعها خطوة بخطوة!

أخذت نفسًا عميقًا، وعادت إلى سريرها غير عابئة بهذا الكابوس المرعب الذي أثبت لها- ولأول مرة في حياتها- أن الوحدة قد تجد

فيها الطمأنينة والعزاء عن صخب أناس قد يمزقونها إربًا في كابوس. وقبل أن تسلم عينيها لنوبة نوم أخرى رمقت ألبوم صورها التي تضعه على «الكومودينو» بجانب سريرها، والذي يضم صورًا لأحبِّ الناس إلى قلبها، وعبير ذكريات أجمل أيام عمرها. احتضنت الألبوم برائحة الذكريات التي تعطّره، وشعرت بأن صور الأحباب الذين يطلُّون منه، أولئك الذين فقدتهم في يوم واحد وفي مرة واحدة نتيجة غارة دنيئة من العدو اللعين على الحي العتيق يتحولون إلى أشخاص بكامل هيئاتهم، ويملؤون عليها الغرفة. ابتسمت في نفسها، وأخذت ابنها الأصغر الذي كان يملأ حياتها بالبراءة والبهجة، وقرأت آيات من كتاب الله، ونامت وحيدة الجسد، ولكن كان يهيم حول روحها عشرات من الأرواح المحبة لتبعث الراحة والطمأنينة داخل نفسها. نامت قريرة العين وحولها باقي أولادها وبينهم زوجها يهدهد أنفاسها المضطربة حتى تحوّلت ملامحها إلى ملاك محلّق في السماء بلا أجنحة.

أوراقُ المَشَاعِرِ

من فرط سعادته، وقف الطموح أمام شجرة اللِّبْلاب يَعُدّ أوراقها ورقة تلو ورقة. ولِمَ لا؟ وقد استقر أخيرًا على هدف كبير كان يتطلَّع دومًا إليه. وبينما هو في كامل نشوته، لاحظ ورقة تتدلَّى من الشجرة على استحياء وخجل، وكأنها تحاول أن تهرب من نظراته الثاقبة. ابتسم الطموح المملوء بثقة النجاح القادم- بإذن الله- مع المستقبل المشرق، واحتضن الورقة في كَفّيْهِ، وراح يهمس لها بكلماتٍ تفوح منها رائحة الأمل، والنجاح، والدفء... انتعشت الورقة التي كان يلتحف جسدها الواهن باللون الأصفر الباهت في محاولة منها أن تفيق من استحيائها، وهروبها من نظرات باقي الأوراق المملوءة بالحياة. لاحظت ساق الشجرة التغيُّرات على الورقة التي كادت أن تسقط بفعل وهن العمر والرياح العاتية. شعر بقلق على ورقته فقرر أن يضخَّ مزيدًا من الماء والغذاء لأعلى، ليس فقط لتلك الورقة الآيلة للسقوط؛ ولكن لكل الفروع حتى تخضرَّ وتنتشي كلّ زميلاتها اللّائي يعانين من حالتها تلك وأوراقهن الآيلة للسقوط. وفي غضون دقائق تحوَّلتِ الشجرة كلّها إلى واحة خضراء تزيّن الأرض التي وهبتها الحياة تحتها. وفجأة، ارتبك الجذر المتشعب في

الأرض، واهتزت روافده من حركة الساق المفاجئة وغير المفهومة. لم تمرّ ثوانٍ حتى هدأ عندما جاءته رسالة من أعلى تبيّن الأمر، وتؤكد على أهمية احتضان كل الأوراق الآيلة للسقوط قبل أن تدوسها الأقدام، وكان نصها: «إذا كان الطموح قد أنقذ ورقة، فهو لن يستطيع إنقاذ كل الأوراق، وإذا كان الطموح قد فعل ذلك بورقة منا وهو غير مطالب بذلك، فلا بُدّ لنا من القيام بوظائفنا ودورنا تُجاه من هم منّا. خاصة من به مرض وفي طريقه للاحتضار».

بعد أن قرأ الجِذْرُ نصَّ الرسالة شعر بحزن تُجاه أوراقه، وبالفخر تُجاه ساقه، وبالخجل تُجاه نفسه. وعلى الفور قرر أن يمدّ كلّ روافده في كل اتجاه وفي عمق الأرض؛ ليرتشف ما يستطيع من عصارتها وخبزها لضَخِّها إلى أعلى ترتوي، وتتغذي كل الأوراق بلا تفرقة. وهكذا فعل اهتمام الطموح وكلماته الجميلة بورقة واحدة. وانتقلت عدوى الحياة لباقي الأوراق وإلي الجذر الذي كان بعيداً تحت الأرض.

واسِطَةٌ مِنَ السَّمَاء

ابتسم الشاب بثقة تملأ قلبه غير عابئ بالابتسامة الباهتة على شفَتَيِ الرجل المُهِمّ القابع أمامه على مكتبه الوثير. جال بخاطر الشاب في هذه اللحظة الكثير من الأفكار، فهو يعلم تمام العلم أن العمل بتلك الشركة ليس بالأمر السهل، فمن متطلباتها واسطة، ومن أين له بواسطة ؟! وهو ذلك الشاب المتفوق من الأسرة البسيطة، ولكن روح الإصرار والعزيمة لم تفارقه لنيل طموحه والحصول على وظيفة أحلامه ولو من فم الأسد.

أفاق على صوت الرجل القابع خلف المكتب وهو يكرر من واسطتك!

أخرج الشاب من جيبه بطاقة تعارف عليها كلمة واحدة وأعطاه للرجل.

نظر إليه الرجل بتعجب! محاولًا أن يخفي ما وراء نظرته من اتهامات للشاب بالاستهزاء، أو الجنون.

ماذا يقصد هذا الشاب من وراء هذه البطاقة. مؤكدًا أنه إمَّا درويش، وإمّا يستهزئ بي، فلم أَرَ في حياتي مثل هذا الموقف ولا هذه البطاقة ... سألته عن واسطته، فإذ به يعطيني إيّاها، حيث لا يوجد بها سوى كلمة واحدة تخلو من أي أسماء ممّن اعتدنا أن يكونوا واسطة!

لماذا يُضيع وقته ووقتنا؟! وهو يعلم تمامًا أن الالتحاق بالعمل بهذه الشركة الكبرى لا يتم إلَّا إذا توفَّرتِ الكفاءة والواسطة كمرجع نعود إليه. ولهذا نسأل عن الواسطة قبل الكفاءة.
تعجَّب الرجل المهم، واندهش، ثم فكر وتدبر محاولًا أن يفهم قصد الشاب من وراء هذه البطاقة الغريبة؛ بسبب غموضها وبساطتها.
غاص الرجل في تفكيره خلال ثوانٍ أخذته إلى حجرات قلبه يبحث في بعضها عن بواقي الطيبة، والحنان، والرأفة، والعدل، وعن الخبث والذكاء في بعضها الآخر.
وفي ثوانٍ مرّت كالدهر، تجوَّل عَبْرها في جغرافيا قلبه وعقله وجوانحه، حيث تذكَّرَ تاريخ ومحطات حياته الكبري.
وفجأة تلعثم الرجل في نفسه عندما وصل لمحطة بعينها، والتي كانت لحظة فارقة في حياته، تلك اللحظة التي صدَّقه فيها رجلٌ واحدٌ، وكذَّبه فيها رجال كثيرون.
لحظة فقد فيها كل أمل في بلوغ مبتغاه، رغم امتلاكه كل مقومات الوظيفة التي كان قد تقدم إليها آنذاك، واستعصت عليه.
اللحظة التي تَبارى فيها الرجل الذي صدّقه بأسئلة تفجِّر طاقات الخبرة والكفاءة محاولًا أن يثني الجميع عن موقفهم الرافض لصالح شخص آخر.
توقف عند تلك اللحظة التي قرر الرجل وقتها أن يناور ويقاتل،

ثم يقـرر لصـالح الكفـاءة، تلـك اللحظـة الفارقـة الـتي انـتهى قـرار اللجنـة فيها بتعيينـه في الوظيفـة المهمـة الـتي ترّقى بها حـتى وصـل الآن إلى منصـب أهم رجـل في هـذه المؤسسـة الكـبرى الـتي يمـلأ اسمها السمع والبصر.

حـاول الرجـل أن يخـفي تلعثمـه عـن الشـاب، ورسم كل مـلامح الجديـة والصرامـة عـلى وجهـه، ثم سـأل الشـاب عـن صاحـب هذه البطاقة، ومن صاحب الفكرة، ولماذا؟!

ردّ الشـاب، ومـا زالـت ابتسـامة الثقـة تغلـف شـفتيه، وتلهـو في عينيـه: أنا صاحـب الفكـرة، وأنا مـن كتبت البطاقة؛ لأني مؤمـنٌ بمن كتبـت اسمـه، وبنفـسي، ومؤمـن بعـدل النـاس لـو تحقـق، وإن لم يتحقـق، فيكـفي إيمـاني الـذي لـولاه لمـا اكتسـبت كل مقوماتي التي بين يديك.

نظـر الرجـل إلى ملـف الشـاب، والـذي كان قـد قـرأه مـن قبـل عـلى عجـالة، ثم بـدأ في قراءتـه بدقـة؛ ليجـد بـين سـطوره وبوضـوح كل مـا يرنـو إليـه مـن مقوّمـات هـو ورجـالات المؤسسـة الآخـرون. مقاوماتـه تقـول إنـه الأنسـب في الاختيـار لهـذه الوظيفـة من ضمن عشرات المتقدمين.

ومـا زالـت الصرامـة تكسـو وجهـه، أمسـك الرجـل بالبطاقـة، وبـدون تردد كتـب تحـت الكلمـة الوحيـدة الـتي تتوسـطها:

«بالتوفيق، مع تمنياتي بمستقبل مشرق معنا». ثم ذيَّل هذه العبارة بتوقيعه المعروف الذي به تُفتح الأبواب المغلقة. وضع البطاقة بثقة بالغة في ملف الشاب، ثم نظر إليه بابتسامة دافئة تلمع فيها عيناه: «ألف مبروك عليك الوظيفة، وألف مبروك عليّ الواسطة».

شكره الشاب بشدة وتقدير، وتحولت ابتسامته إلى فرحة غامرة وهو يُقسم بداخله أن يخلص في وظيفته لهذا الاسم الذي يتوسط البطاقة ولصاحب العمل، وهذا الرجل الذي يراه الآن بألف رجل وألف مؤسسة. لمعت عينا الرجل، وانفرجت أساريره وهو يتابع فرحة الشاب الكبرى، وحمد الله على أنه استطاع ردَّ الجميل لرجل كان قد نسيه وسط صخب وإغراءات الحياة، الرجل الذي أعطاه فرصة حياة مثل تلك التي أعطاها لهذا الشاب الآن. أمسك الرجل البطاقة، وقرر أن يأخذ عدة دقائق يتصل فيها بالاسم الذي يتوسطها. نهض الرجل في ثقة وهدوء، وقصد ركنًا في حجرة مكتبه ليصلي ركعتين لله، فقد كان الاسم على البطاقة الذي دوَّنه الشعب بكل ثقة هو: «إليك من الله».

نَبْتُ المَشَاعِرِ

وقفت أمامي وهي تنظر إليّ بحنان بالغ، وبعينين تحاولان أن تتعرفا على كل خلية في ملامحي. ورغم كل الحنان المتدفق مع نظراتها، كانت عيناها تائهتين في ملامحي.

تركتُ وجهي، الذي استيقظ على التوِّ على أثر نداءاتها المتتالية في لهفة وشوق، لأطراف أناملها تتحسس ملامحي التي تخبئ تحتها خريطة ذكرياتنا الجميلة.

ألقت برأسها على صدري وهي تذرف دموعها التي بللت وجنتيها بلا انقطاع.

مددتُ يدي، وظللت أمسح على رأسها بحنان. شعرت بها كقطة آوتْ إلى حِجْر صاحبها، وانزوت فيه باحثة عن الأمان.

لم أشأ أن أسألها عن سبب بكائها؛ حتى لا أقطع عليها الإحساس بالأمان بين يدي.

لم تشأ أن تخبرني عن سبب دموعها الساخنة، وانكسار قلبها الذي أسمعه يدقُّ بطبول الحرب في صدرها. تركتُها تبكي حتى آخر دمعة في مقلتيها.

غاصت في صدري بعينين استسلمتا لستائر رموشها التي تحمل

أسرار دموعها الحبيسة لخمسين عامًا منذ رحيل أبي على صدرها وأنا طفل لا يدرك بعدُ معنى الرحيل.

حملتها بين يديَّ كطفلتي المدلّلة التي تنتظر رجلها الوحيد من غربته الطويلة. استسلمت بين يديَّ كغصن اللبلاب الغضّ وأنا أريح جسدها- الذي أشعر به ينتفض- بجوار ابنتي لتنام نومة العروس حتى المساء.

ظللتُ أنا وزوجتي نُزيِّن البيت كله حتى نفاجئ أمي بأجمل حفلة عيد لميلادها.. ذلك اليوم الذي قد نسيته، أو تناسته عن عَمْدٍ؛ وقد صادف يوم عيد ميلاد ابنتي، وكأن القدر أراد أن أحتفي بأمي أيضًا في ابنتي.

استيقظت أمي في المساء على أطراف أنامل ابنتي مداعبةً خصلات شعرها الأبيض. وفوجئت أمي بالأضواء الخافتة والشموع، والزينة التي تملأ أركان البيت واسمها يتلألأ بكلّ ركن فيه. احتفلنا بحفل زفافها على عمرها الستين.

لم يكن معي سوى زوجتي وابنتي وذكريات العمر كله التي نسيتها أمي؛ بسبب مرض النسيان الذي هتك شريط ذكريات عمرها ما عدا بعض ذكريات متفرقة للطفولة والصبا والشباب، حيث كانت تحملني بين يديها طفل، وتهدهد قلبي وعقلي ابنًا وصديقًا. جلست بجواري موزّعةً نظراتها بالتساوي عليّ وعلى طفلتي

وزوجتي بحنان بالغ. وفجأة نهضت من مكانها ضاحكة، فقد تذكرت آخر هدية لها مني في عيد الأم، وآخر هدية منها لي في عيد ميلادي. أدركتُ أنها أفاقت من غيبوبة النسيان، وهي أدركت أني لم أسافر بعيدًا عنها أبدًا، وأني أبدًا لم أتركها، رغم احتياجي بشدة إلى مال الغربة لأدفع به فاتورة الحياة الباهظة. توقفت بوصلة نظراتها عند ملامحي، وظلت تنظر إليّ بكل حب وحنان وعيناها تحتضنان عينَيَّ. أخذتني في حضنها الدافئ الواسع باتساع العالم، فارتميت على صدرها ألتمس فيه الأمن والأمان، وغُصْتُ فيه كطفل بريء يتمنى ألّا يفيق من فوق نبضات قلبها الذي أبدًا لا ينسى ملامحي، ولو نسيها العالم أجمع. وكانت تلك اللحظة التي تبادلنا فيها الأدوار، هي اللحظة التي أزهرت فيها مشاعري في وادي النسيان.

مَشَاعِر فَوْق السُّطُوح

خرج من بيته حالمًا متأبِّطًا ذراعَ ذكرياته التي تعوّد أن تصاحبه في المناسبات السعيدة. ألقى نظرة واسعة على الشارع الضيق الذي يبدو في عينيه اليوم باتساع السماء الزرقاء الصافية. نظر إلى الشمس، فوجدها تتوسط السماء مبتسمة له، مرسلة بأشعتها الذهبية لتلوِّنَ ملامح الناس في الشارع بالدفء المجانيّ. ابتسم للشمس، ولوَّح إليها براحَتَيْ يديه. مشى الهُوَينَى فأرسلت الشمس وراءه خياله ليحرسه وهو يتأبَّط ذكرياته السعيدة. متبخترًا كالطاووس في حُلَّتِهِ التي اشتراها اليوم خصّيصًا للاحتفال بالعيد مع ذكرياته وسط الأهل... ماشيًا في خُيَلاءَ ظاهرة.. منتشيًا بما يرسله الهواء من نسمات تلطف روحه، وتدفع الدم النقيَّ عبْر شرايينه.. فجأة، مرّت بجواره عربة مسرعة كالطيف.

وقع على الأرض، فارتطمت رأسه بحجارة الحارة الضيقة التي كان يراها منذ قليل كالسماء الواسعة الصافية. انثنتْ ذراعه تحت جانبيه، فانفرطت الذكريات، وتبعثرت وسط التراب وداستها الأقدام الحافية!

اختفى خياله الذي أرسلته الشمس لتحرسه، وتلوَّنت حُلَّتُهُ بتراب وطين الشارع. شعر بالألم ينشر جسده بمسامير الوحدة. نظر

لحاله، فوجد نفسه كطائر أسقطته بندقية صياد أرْدَتْهُ جثةً هامدةً على الأرض، بعد أن كان يمتلئ بشعور الطاووس منذ لحظات.
فتح عينيه يتحسس ما حوله. ليجد نفسه نائمًا في سريره وأشعة الشمس الحامية تخترق شُبَّاك غرفته في الطابق العاشر في تلك البناية العتيقة في أرقى أحياء العاصمة. تخللت أشعة الشمس ملامحه موقظة إيَّاه من هذا الكابوس الذي أصبح يراوده كلما زارته مناسبة سعيدة أو حزينة، وهو وحيد بين جدران شقته الواسعة والفارهة. نهض متثاقلًا من وسط سريره البارد. وتمنَّى ساعتها لو يحمله هواء غرفته الصامت إلى عالم آخر بزمان آخر، ومكان أخر.

سمع قرْعًا على الباب. فتعجّب من هذا القارع الذي يتذكّره اليوم ولو بالخطأ. فتح الباب فرحًا ومتوجّسًا. وجد أصحاب السطوح يجذبونه من ذراعه لينضمّ إليهم في حفل العيد فوق السطوح.

وهو في وسط دهشته استجاب لهم، وجرى كالطفل وسطهم حافي القدمين نحو السطوح، بينما ذكرياته الجميلة تتدحرج أمامه. انتشى من هذه اللحظة الرائعة التي أوقدت شعلة الفرحة الهامدة في قلبه. وسط الأيادي الضاحكة وصل إلى السطوح التي رآها لأول مرة باتساع السماء الصافية، وفوقها أشعة الشمس المبتسمة. جلس بينهم كالطاووس، وأصدقاء السطوح يلوِّنون ملامحه بالمشاعر

الصادقة بعد أن أنهكته كوابيس ذكريات الوحدة الخانقة. وقبل أن يفيق من دهشته ومن سَكْرَة الفرحة التي تلذّذ بها أيَّما تلذذ وهو يرتشفها رشفة وراء رشفة، وقبل أن يهِمَّ ليسأل نفسه: «من وراء عَفْوِيّة أهل السطوح هذه التي تبدو مرتّبة ومنظمة» وجده قادمًا هناك بهيئته الهادئة، وبابتسامته الحانية التي لم تفارقه منذ أن كان طفلًا صغيرًا. لم يصدق نفسه، فهو يرى ابنه الوحيد الآن في هذه اللحظة الفريدة خاصة بعد غياب طويل طال سنوات وسنوات عجافًا. ولكن كان ابنه، وبجواره زوجته، وأولاده بعد غيبة سنوات في الغربة لم يزُرْه فيها إلَّا مرة واحدة في بداية مشوار الفراق. ألقى بنفسه في حضن ابنه الواسع بحضن السماء مرتشفًا من الحنان وكأنه هو الابن الذي غاب.

تحوَّل السطح إلى دار ضيافة كبيرة.. الأب والابن وأصدقاء السطوح الذين يعرفون كيف تُصنع الفرحة تحت السماء. وبعد انتهاء مراسم الاحتفال من رقص وغناء وحديث مساء علي صوت أكواب الشاي الساخن، توسَّط الأب أسرة ابنه وعيناه تنظران للفضاء شاكرًا ربّ السماء والأرض. وهنا أدرك الأب مَنْ صنع المفاجأة التي بطلها ابنه، ووراؤها أبناء السطوح.

ومنذ تلك اللحظة عشق الأب هواء وذكريات السطوح.

طبيبُ المَشَاعِر

تسلَّلتُ خِفْيةً من وراء السور الذي يفصل بين اليافطة المكتوب عليها «العلاج المجاني»، والأخرى المكتوب عليها «فقط للعلاج الخاص»، ثم توجهت ناحية القسم الخاص بالعلاج المجاني. نظر إليها الطبيب غيرَ عابئٍ، فمظهرها الرَّثّ يشير إلى فقرها وقحطها. أومأ إليها بطرف عيْنِهِ أن تجلس، فجلست. ثم أشار إليها بطرف إبهامه دون أن يحرِّكَ شفتيه بأن تمدّ يدها أمامه. مَدّتْ يدها، وكشفت عن ساعدها لقياس النبض والضغط. شهق الطبيب في نفسه عندما رأى بياض ساعدها الناصع، وجمال رسمته ورقّته.

لم يتصور أبدًا أنَّ تحت هذه الملابس الرثّة هذا الجمالَ الإغريقيَ الشرقيَّ، رفع رأسه لينظر في عينيها متفحّصًا ومتحمّسًا هذه المرة ليرى ما إذا كانت تحمل الجمال الأنثوي نفسه الساكن بساعدها، فمؤكدٌ أن الجمال لا يتجزَّأ.

وما أن نظر بعمق في عينيها حتى ذاب نجلًا من الجمال والرقة والعذوبة التي وقعت في قلبه بعد أن غاص في أعماق بحور

عينيها. شبَّه على هاتين العينين، ولكنه نفى شكّه، فكيف للأعين بثقافتها وعزها، تلك التي كم تمناها، ولهث وراءها أن تغطيها تلك الهيئة التافهة.

ومع ذلك تمنَّى لو كان مريضًا وهي الطبيب. وبالنشوة التي تملّكته من إعجابه بهذا الجمال الذي ذكّره بمن يهواها قلبه، ألقى إليها بابتسامة تمنّى لو تقرأها، وتفهم منها كم كان أحمقَ عندما أهملها لحظة دخولها عليه غرفة الكشف. قابلت ابتسامته بابتسامة باهتة ليس بها فرحة، ونهضت واقفة وسألته عن التشخيص والعلاج.

نهض هو الآخر، ونظر إليها بعينين تسألانها البقاء، ولكن يبدو أنها قررت أن تنهي المقابلة الآن... أنت بلا أوجاع... وأنا كلّي وجع.

سلامتك من الوجع، وأنا كنت هنا لأرى العالم كيف يتحول، لقد تحدثوا إليَّ عنك، وأنا لا أعرفك، وذكروا لي محاسنك، وأنا لا أعرفك، وعدّدوا مزايا وظيفتك، وأنا لا أعرفك، وألحّوا عليّ للموافقة على طلبك مقابلتي للتعارف، وها قد أتيت بنفسي لأنال شرف معرفتك.

وهكذا وجدتك لا تعبأ إلّا بالسواعد.. والأعين، ولم تعبأ

بحالي وأنا في هيئتي الرثّة. وكأني لا أساوي جناح بعوضة طالما أنا هنا في جناح العلاج المجاني، وطالما أنا هنا بملابسي هذه!
نظر إليها متفحّصًا غير مصدق نفسه، وهي تخلع عنها أسمالها البالية، وتُظهر ما تحتها من هندام تبدو فيه شخصية أخرى.
أأنت نادية التي حاولت مرارًا وتكرارًا الوصول إليها ؟
نعم، أنا نادية التي قررت ألّا يغويَها إنسان.
تركته فاغرًا فاه غير مصدق أنها كانت بين يديه، ولم يستطع الوصول إلى قلبها وعقلها.
وقفت عند الباب، ثم أدارت وجهها إليه قائلة: «الحب أن تحب الناس؛ لأنك حبيب، الحب أن تهتم بكل الناس؛ لأنك حبيب، القلب القاسي والمتعالي لا يعرف الحب، ولا يعرفه، ولا يسكنه الحب.»
والصدمة لا تزال تخدّر قلبه.. جلس على كرسي العيادة ينتظر المريض القادم، وكلّه حماس أن يتحوَّل من طبيبِ جناحِ العلاج المجاني في هذا المستشفى المعروف إلى طبيب كلّ الناس.

جُمُود المَشَاعر

تعَـوَّد أن يرى كل شيء حـوله في قريتـه الصغـيرة في أبسـط صـورة، وأبهى حُـلّة، وتواضـع أناسـه. ولكنـه كلمـا كَـبُرَ وابتعـد عـن مسـقط رأسـه أصبـح حجـم وقيمـة ومعـنى النـاس والأشـياء والبنـايات أكبر في عينيه عمَّا كان يدركه من قبل.

وكَـبُرَ مـع الزمـن، وكَـثُرَتْ تنقلاتـه، وكَـبُرَ في عينيـه النـاس والأشـياء أكـثر وأكـثر، ولكـن هـذه المـرة كان بعيـدًا عـن موطنـه وسـط البنـايات والرُّتَـب العاليـة، حـتى أصبـح أمـله الأكـبر في الحيـاة عندمـا يصـل إلى منتهى الطريـق أن يكـون واحـدًا مـن أولئـك النـاس في موطنـه الجديـد؛ متناسـيًا موطنـه القـديم.

كم تمـنَّى أن يكـون له مسـكنٌ في إحـدى تلـك البنـايات الشـاهقة! وأن يمتلـك بعضًـا مـن تلـك الأشـياء، وتمـنّى أن يمهِّـدَ له الزمـن طريقًـا نقيًّـا خالصًـا ليكـون أهـلًا لمكانـة يتمنّاهـا لنفسـه في حيـاة مملـوءة بالـرقيّ، والسـعادة، وراحـة البـال، ولا بأس بـشيءٍ مـن الجاه والمال والسلطان.

ومـا أن تحققـت له مكانـةٌ بـين هـؤلاء النـاس، ومـكانٌ في تلـك البنـايات، ومِلـكٌ في بعـض مـن تلـك الأشـياء، حـتى أدرك أن

الـرقي الأسمى، والسـعادة الحقيقـة، والنقـاء المصـفّى كلهـا كانـت هنـاك عنـد موطـن رأسـه عندمـا كان غضًّـا صغـيرًا لا يعـرف معـنى الـرياء والتكـبر والمصـالح، والنفـاق، وعظمـة الأنا، وتضخـم الـذات. أدرك أيضًـا حينئـذ أن «رأسـه» قـد امتـلأ بحـكايا وصـور للذكـريات النقيـة، والبنـايات البسـيطة، والـتي رغم بسـاطتها يفيـض منهـا الجمال وتملأها العذوبة.

حينئذ، تمنَّى أن يعـود غضًّـا، وهـو الـذي يعـلم أن العـود الـذي أصـاب قلبـه بالجمـود لا ينبـت لحـاؤه مـن جديـد، ولـو نُقِـعَ في نهـر الفـرات! أخـيرًا، أدرك أنـه لم يعـد لديـه خيـار سـوى أن يتنفّـس عبـقَ ماضيـه برئات حاضرة لعلّ غدُهُ يأتي بحلو المفاجآت.

مدينة من ذكريات

على أريكة أفكار الحاضر، حلّتْ على قلبي عواصف الماضي، ورياح الذكريات المحمّلة ببقايا الأماني، وشظايا الأمل، وأنسام المشاعر لتعصف بأريكتي.. لأجد نفسي وحيدًا معلّقًا بين السماء والأرض، وممسكًا بحبال من الهواء!

تشبّثت بتلك الحبال بكل عزمي وقوتي، ولكن دون جدوى. سقطت على ثرى الأرض المبللة بماء هو نفسه لُجُّةٌ من عصارة شجون وأحزان، وهموم الذكريات.

تماسكت، ثم نهضت وتناسيت أريكتي، ورحت أبحث في الحارات والطرقات لعلّي أجد أريكة أخرى مثبّتة في أديم الأرض، فأهدأ عليها وأرتاح.

وبعد بحثٍ في كل مكان، فشلت في أن أجد ما يشفي رغبتي، ولم أرَ إلَّا فراغا، وخواء يملأ جوفي وفوقي وتحتي. وعندما نظرت إلى الأفق وجدت كل الأرائك معلقة في الهواء. حينئذ، قررت الرحيل عن مدينتي. وما أن همَمْتُ على الرحيل، حتى فوجئت برؤوس تطلّ من تحت الأطلال، وشقوق جدران

البنـايات تتتبّـع أنفـاسي، وتنفـث كُتـلًا مـن نـيران الحقـد والنكـران. حينئـذ قـررت الهـروب مـن مدينـتي وبـلا رجعـة، وفي ظـل حـالة الخـوف والقلـق الـتي انتابتـني نسـيت عنـوان مدينـتي. هرولـت مولّيًـا الأدبار، يلاحقـني ظـل أنفـاسي القلقـة، وظللـت ألهـث يتملكـني الخـوف حـتى غبـت عـن الـوعي، ولم أدْرِ أين أنا! أفقت على همس أصوات حول جسدي المعلّق على أعناق الرجال.

تساءلت: أين أنا، ومن يحملني ولماذا؟!

ردّ كبـيرهم: نحـن وجـدناك تحتـضر، وبـلا رفيـق، فكنـا لـك الرفيقَ والخليلَ حتى أفقت بيننا.

قلت: ومن أنتم؟

وفي صـوت واحـد ردّ الجميـع في حمـاس: نحـن جيرانـك في الحي العتيـق؛ جئنـا لنقطـع رؤوس الشـياطينِ؛ ونعمِّـرَ الـديار بعـد كل دمـار وخـراب، فوجـدناك ملـقى بـين الأنقـاض، ولكننـا عرفنـاك فقـد كنـت فينـا الحكـيم، وكنـا نلجـأ إليـك في المنازعـات. ابتسـمت ونهضـت مـن مرقـدي، أنا معـكم أينما كنـتم، أعطـوني عنـوان مدينـتي، فقـد اشـتقت إلى كل مـا ومـن فيهـا مـن طـرق وحـارات. فلنعـد إلى مدينـتي الـتي كان قـد عَـزَّ علـيّ فيهـا المقـام.

مَشَاعِرُ بطعْمِ الحلَيب

خارت قواه، وبهتتْ ملامحه بفعل تعاطيه المخدرات حتى أصبحَ هيكلًا عظميًّا يدرَّسُ لطلاب كلية الطب. والدموع الساخنة تائهةٌ في مقلتيه، أمسك يَدَيْ عمِّه بقوة متوسّلًا ألَّا يتركَه وحيدًا في هذا المكان الموحش، وهو الذي تعوَّد على الحياة الصاخبة. تركه عمُّه الذي جاء به هنا عُنْوةً وعمدًا كحلٍّ نهائيٍّ لإبعاده عن أصحاب السوء، وعن سوق المخدرات التي أذلّته.. وهو المهندس الشاب الذي كان ينتظره مستقبلٌ ضاحكٌ يحسده عليه الجميعُ.

ترك الرجل ابن أخيه بين أدويته وحاجياته التي أحضرها معه حتى يتعافى بنفسه ولنفسه بعيدًا عن أيّ مَصَحّات بعد أن فشلت كلُّ الحيل والمحاولات.

وما أن تركه عمُّه حتى شعر بوحدة يغرق فيها، وأمواجٍ من الآلام المبرحة لا يعرف من أين تأتي. أظلمت الدنيا حوله، فارتمى على الأرض ينبش فيها عن شيء لا يعرفه، ولكنَّ الأرض الجدباء لا تنبت إلّا إذا زرعناها ورويناها. مرّغ وجهه في التراب عساه يروي دماءه بشيء يُسكت الصراخ

والألم المدوّي بداخله، ولكن التراب لا يطفئه إلّا النار. وبكل قواه الواهنةِ أمسك برأسه بكلتا يديه عساه يحبس ألم الصداع الذي يجري في دماغه ذهابًا وإيابًا معربدًا فيها، ولكن الألم أقوى من يديه، ومن محاولاته البائسة.

لم يجد أمامه سوى جدارِ الحجرة ليضربَ رأسه فيها دون أن يدري؛ عسى الألم أن يهرب تحت تأثير الضربات؛ وخوفًا من الجدار، ولكنه لم يبصر إلا دماءه تسيل على الأرض، والجدار يقهقه بسخرية تملأ أذنيه.

ظل يضرب الجدارَ برأسه كالثمل الذي يتخبطه السُّكْرُ. ظل عمه يحبس عبراتِه، وهو يراه من الكاميرا التي تنقل له ما يجري بعد أن أوهم ابن أخيه الوحيدَ أنه ذاهبٌ ولن يعود.

أخيرًا، وقع صريعًا وسط دماءِ رأسه، وذهب في غيبوبة. ولما استيقظ في الصباحِ وجد نفسه وحيدًا إلّا من ضوء الشمس الذي تسلل من كل النوافذ ليعقّم الدار لهذا الشاب المسكين.

شعر بالجوع يمزق جوفه، بحث في الدار، فلم يجد شيئًا سوى أرغفة عيش، وعسل، وجبن أبيض.

اشتد غيظُه وغضبُه على عمه الذي تركه هنا وحيدًا بلا زاد، ولا مال، ولا ناس، ولا ثمّة واحدة. وفجأة هاج عقله، وانقلب

مِزاجُه على شمة واحدة تهدِّئ هذا الإدمانَ الصارخ في كل خلية في جسده. تمزَّق بين شعوره بالجوع، وحاجته إلى لذَّةِ شمَّةٍ واحدة! لم يدرِ بنفسه إلّا وهو ملقى على الأرض، وفي يديه كِسرةُ خبز وقطعةُ جبنة ناشفة يأكل فيها، ويشمّها باكيًا في غيبوبة الشمّ!

ولم يمضِ شهرٌ على هذا الحال، وعمُّه يراقبه حتى تعافى بعد أن أدمن كسرات الخبز الناشف والجبن الأبيض، وكأنها إكسير الحياة عِوضًا عن الهيروين الأبيض. تذكّر عمّه بقلبِهِ الأبيض كبياض اللبن المصنوع منه.. الجبنة التي أدمنها... أحب عمَّه حبًّا ملأ عليه قلبَه، وعاش له ولدًا صالحًا حتى آخر العمر.

جنونُ المَشَاعِر

شعر هشام بثورة عارمة تعربد في صدره وعقله، وتعالت دقات نبضات قلبه، وكأنه قلب عصفور جريح.
لم يستطع تحمل هذا الإحساس وحده، فقرر أن يترك غرفته فوق السطوح، وينزل إلى الشارع لعلّ صخب أقدام الناس وألسنتهم هناك تطغي على هذا الصخب الغاضب، والهائج في رأسه المنهك بالهموم الثقال.
وما أن لمست قدماه رصيف الشارع الذي يقطن فيه، حتى فوجئ برأسه وكأنه قمر صناعي يلتقط، ويبثّ الأفكار في رؤوس الناس صوتًا وصورة حتى طغت بالفعل على أفكاره هو.
انكشفت له أسرار الناس على مصراعيها. وقف في وسط الشارع فاغرًا فاه في ذهول، متعجبًا كيف بالله حدث هذا؟!
كاد هشام أن يُجنَّ ممّا يسمع ويرى داخل أدمغة المارة، فذلك ابن يمشي مبتسمًا بجوار أمه، وطفل صغير يلهو بيد أبيه، وشيخ يمشي في وقار في طريقه إلى المسجد، وهذا زوج ينظر إلى زوجته في رثاء، وزوجة عيناها على زوجها وهو يعبر الطريق، وصديق يمرح مع صديق.

كاد أن يفقد عقله، عندما رأى وسمع كيف يتنافى ما في رؤوس الناس مع أفعالهم، كيف وصل نفاق أفكار الناس مع ظاهر أفعالهم هكذا، وكيف تصنع شفتا الشخص البسمة، وعقله يضمر الأفكار الناقمة. كيف يحقد صديق على صديقه وهو يمسك بيده؟ وكيف يخفي الابن أفكاره عكس حديثه مع أبيه؟ وكيف لهذا الزوج أن ينظر لزوجته في حنان وهو يفكر في صديقتها؟... كيف، وكيف!

كاد يفقد عقله للأبد، فهو لا يدري كيف يبطل سحر مفعول هذا الاتصال المباشر بين رأسه ورؤوس الناس في الشارع. ومن هول ما يدور في رأسه، لم يستطع هشام أن يتمالك نفسه، فقد أتى هنا؛ لكي ينسى همومه وسط الناس، فإذْ بالناس تتعرّى صوتًا وصورة بأفكارها، وهمومها، وتناقضاتها أمامه حتى أصبح رأسه مرتعًا لكل الأفكار. ندم أشد الندم على مغادرته غرفته فوق السطوح ليجد الشارع كلَّه سطوحًا.

جرى نحو أقرب حائط، وضرب رأسه بقوة لعلها تتحطم، وتتوقف عن هذا البث المباشر لأسرار العالم، وتناقضاته. سال الدم بغزارة على جبينه وعينيه حتى غاب عن الوعي تمامًا، وسكتت كل الأصوات الثائرة في صدره التي هرب بها من بيته إلى الشارع، وسكتت أيضًا تلك الأسرار الثائرة

والقادمة من عقول الناس حوله، العقول التي بَدَتْ له بفكرها كالقرود الهاربة من حديقة الحيوان بعد سنوات من الحبس الانفرادي.

تجمَّع المارة حوله متعجبين من فعلته، هل مسّه الجنون؟ أم فقد عقله؟ أم كان يحاول الانتحار؟ كيف لشاب أن يفعل ذلك بنفسه هكذا أمام الناس. ومن هَوْلِ ما أصابه من نزيف، تبرّع بعضهم في نخوة، وحملوه إلى أقرب مشفى، ولم يتركوه إلّا بعد أن أفاق من غيبوبته.

نظر الطبيب إليه يطمئنه بأنه بخير، وفي الوقت نفسه يحذره بنبرة حازمة من ألّا يتعاطى أقراص الهلوسة تلك مرة أخرى، فهي السبب وراء غيبوبته بعد أن ابتلع ثلاثة أقراص مرة واحدة.

نظر إليه هشام متعجبًا:

وكيف هذا يا دكتور؟ أنا لا أتعاطى أي أقراص هلوسة. أنا مجرد رجل بسيط يعيش في غرفة بسيطة فوق السطوح، ولا أعرف طريقًا غير طريق ذهابي وعودتي إلى عملي الذي أقتات منه معاشي يومًا بيوم.

نظر الطبيب إلي هشام في تعجب، ولكن فارغ الحبوب هنا في جيب قميصك الملطخ بالدماء، وكل الأعراض التي انتابتك لا يفسرها إلّا أقراص الهلوسة تلك.

فكيـف حصلـت عليهـا؟ هـل أعطـاك أحـد مـا هـذه الأقـراص؟
صمـت هشـام برهـة متعجّبًـا ومحـاولًا إدراك مـا حـدث، ثم تذكـر طلـب المـشرف عليـه في المصنـع وهـو يطلـب منـه أن يوصـل علبـة أقـراص «الصـداع» إلى صديـق له يقطـن بالشـارع نفسـه.
ثمَّ تذكّـر اللحظـة الـتي سـوّلتْ له نفسـه ليأخـذ ثلاثـة أقـراص مـرة واحـدة ليسـكت الأصـوات الثـائرة في رأسـه وصـدره؛ بسـبب أكـوام الهمـوم والديـون الـتي تراكمـت عليـه حـتى أثقلـت ظهره وأفقدته الشهية للحياة.
ثم تذكـر اللحظـة الـتي ترك فيهـا غرفتـه، ونزل إلى الشـارع هـربًا بـين النـاس، ثم تذكـر كيـف أن رأسـه أصبحـت مـرة واحـدة كنافـورة لأفـكار النـاس الهائمـة في الشـارع.
نظر هشام إلى الطبيب بعينين غائرتين متعجّبًا:
أكُلّ مـا حـدث لي في غرفـتي وفي الشـارع بسـبب حبـوب الهلوسـة تلك التي ظننتها مجرد أقراص تعالج الصداع ؟
نعـم يا سـيد هشـام، هي السـبب، وكان مـن الممكـن أن يحـدث لعقلـك أكـثر مـن ذلـك لـولا أنـك ضربـت رأسـك في الحائـط، ففقـدت الـوعي وأسـكتّ دون قصـد كل تلـك الأصـوات الـتي تعيـث بداخلـك غضبًـا وعنـوة... المـخ يا هشـام مثـل القنبـلة

النووية التي قد تنطلق من مرقدها لتنفجر بلا حساب لتحرّر إلكترونات أفكارها، وتستقبل إلكترونات أفكار الآخرين. أرجو أن تحترس من هذه الحبوب وقد تخلصنا ممّا تبقّى منها معك.

ابتسم هشام للطبيب وللناس التي لا تزال تنظر في تعجب، ثم ضحك ضحكة عالية هزت الغرفة، وارتدي حذاءه، وخرج من الغرفة بلا مبالاة، وترك الطبيب والناس حوله يحملقون فيه دون أن يشكرهم على موقفهم ومساعدتهم إيّاه.

وقبل أن يترك الغرفة، نظر إلى الطبيب نظرة كلها تحدٍّ وسخرية ليفاجئ الجميع:

لن أتخلص منها يا دكتور، فقد عثرت أخيرًا على علاجي، ولن أتنازل عنه، علاجي في تلك الحبوب التي لن يُسكت عقلي سواها، حتى لو حولته إلى ساحة قتال، فسوف تصمت في النهاية عندما أضرب رأسي في أقرب حائط.

فاجأ هشام الجميع عندما مد يده ليبتلع قرصين، ليؤكد لهم اختياره الذي لن يتنازل عنه. ولم يَخْطُ بضع خطوات في طرقة المستشفى حتى جرى نحو أقرب حائط ليضرب رأسه فيه! بعد أن هاجت أفكاره على أفكار من حوله، وهو يردّد بصوتٍ عالٍ أفكار الطبيب، وطاقم التمريض، وكلّ مَنْ حملوه إلى المستشفى.

هاج الجميع عندما انكشفت أسرارهم، وتعرَّتْ علي يد هذا المجنون.

جَـرَى الجميـع وبـدون تفكـير، وهجمـوا عليـه ليغلقـوا فـاه ونزيـف الأسرار الـتي يتلوهـا هـذا المجنـون كنـشرة أخبـار أمـام الجميـع. وبعـد أن راح في غيبوبتـه بـدأ الطبيـب عمـله ليوقـف نزيـف الدماء بعد أن تأكد من توقف نزيف الأسرار.

وعـلى الفـور، أمـر الطبيـب بحجـز هشـام قبـل تحويـله إلى مشـفى الأمـراض العصبيـة ليبـوح هنـاك بأسراره كيفمـا وأيـنما يشـاء!

مشاعِرُ على الحُدُود

تملّكته مشاعر الفرح التي انعكست في ضحكات عينيه البريئتين، وهو يخطف هدية عيد ميلاده الخامس من بين يدي أبيه. وبسرعة ولهفة أخرج «جاسر» كل الهدايا، وبعثرها على الأرض ليختار منها أحبهم إليه، كما يفعل كل مرة، والجميع يصفقون له، بينما هو يصيح في نشوة كلما أمسك بلعبة، ثم يتركها ليختار واحدة أخرى قبل أن تُطفأ الأنوار، ويحتفلوا بعيد ميلاده.

وعلى غير عادته، قرر «جاسر» أن يختار من بين عشرات اللعب الإلكترونية من كل شكل ولون، لُعبة تقليدية عبارة عن حُصان يمتطيه فارس يشهر سيفه نحو السماء في عِزَّةٍ وخُيلاءَ. فرحت جدّتُهُ باختياره بشدة، فقد كانت هديتها له وهو لا يدري، ورفعت يدها وهي تشير له بعلامة النصر.

تعجب الجميع من اختياره هذه المرة خاصة أن اللعَب كانت بها أحدث جيل لتليفون «آيفون».. كم كان يتمناه! نظر إليه والده في تعجُّب بعد أن نظر إلى أمه العجوز في دعابة

وكأنه يقول لها: ها قد انتصرت علينا جميعًا بهديتك البسيطة يا أمي.
أمسك «جاسر» الحصان بين يديه في لهفة وقوة، وهو يقف بين أبيه وأمه، ووسط الجميع ليحتفل به الجميع، ويغنوا له: عيد ميلاد سعيد. وقف منتشيًا ومطمئنًا بين أسرته وأصدقائه، وكأن العالم أجمع وطنه وداره. والآن حان وقت إطفاء الأنوار للاحتفال. صاح الجميع، وبصوت عالٍ: «واحد، اثنان، ثلاثة ....». وقبل أن ينطق الجميع بكلمة «... ثلاثة»، انقطعت الكهرباء، وسمعوا صوت انفجارٍ مُدَوٍّ، وتصدّعت بسببه جدران البيت. انهار سقف الغرفة فوق رؤوسهم، وهم في دهشة غير مصدقين ولا مدركين ما يحدث.

تحوّل صوت الجميع من الفرحة بالاحتفال بعيد الميلاد إلى آلام وأنين، وهم يحاولون الاحتماء بقطع الأثاث التي بعثرها الانفجار، ومعها جثث وأشلاء الكثير ممّن حضروا الاحتفال. تحوّل المكان الذي كانت تضيئه منذ لحظات وجوه ضاحكة، إلى ظلمة حالكة جعلت الكل يستخدم كشاف الطوارئ لينيروا المكان. طال الظلام الدامس حتى نَفِدَتْ كلّ البطاريات، واستسلم مَنْ بَقِيَ على قيد الحياة للدماء التي تنزف منهم، وللآلام والأنين والحسرة التي تلفُّ المكان. خاصة بعد أن سمعوا عن سبب الانفجار وقرب الاحتلال.

شعر «جاسر» بذعر وفجيعة، وبقلبه يتفتّتُ بين أضلعه من هول ما يرى. ظل صامتًا وهو يقبض بكلتا يديه على هدية جدته، الحصان وعليه الفارس شاهرًا سيفه في السماء. ظل منكمشًا في ركن الغرفة شاخصًا إلى اللّا شيء، حتى شقشق الصُبح ليجد نفسه وسط الحطام والركام. وبعد ساعات من الخوف والهلع والشعور بالوحدة، وجد نفسه مندَسًّا بين صفوف الأطفال على الحدود لتزداد حسرة قلبه ولوعته. صعد «جاسر» سُلم حافلة اللاجئين وهو ما زال قابضًا وبقوة على الحصان، وعيناه على الفارس الشاهر سيفه بخيلاء نحو السماء. ذرفت من عينيه دمعات سقطت على سيف فارسه وهو ينظر إليه متمنّيًا أن يكون يومًا ما هذا الفارس المغوار، ولو بسيف من خشب. أخد «جاسر» مقعده في الحافلة، منكمشًا في نفسه وصمته. تحرّكتِ الحافلة رويدًا رويدًا في هدوء وصمت وحزن، وعينا «جاسر» معلقتان على حطام الديار المحطمة حتى أصبحت سرابًا بعد أن ابتلعته الحدود.

رحل جاسر بعيدًا عن الحدود، وعلى رائحة أشلاء والديه وبين ضلوعه ألم دفين، وحنين وأنين، وبين يديه لعبته.. الحصان وعليها الفارس الذي ما زال شاهرًا سيفه في خيلاءَ بلا حدود!

وقد تولد المَشَاعر قيصرياًّ

طالما استنكر السؤال الذي يواجهه: ما الفارق بين السعادة والرضا؟ ففي نظره أن السعادة هي التي تجلب كل الأشياء بما فيها الرضا. ولكنه لم يكن يدرك أبدًا أن الرضا ليس من الأشياء، بل هو كل شيء.

وقف أمام المرآة الكبيرة في غرفة مكتبه ناظرًا إلى وجهه الذي تعكس ملامحه وتنطق عيناه بالسعادة الغامرة التي تسري في قلبه وعقله وجوانحه بما أنجزه من تحقيقات مهمة من خلال سلسلة من العمل المضني لإرضاء غرور طموحه وتطلعه إلى المنصب الرفيع الذي يرجوه، ذلك الذي أصبح على وشك أن يناله.

وعلى غير عادته، تذكر والديه اللَّذَيْن كان يحتمي في ظل دعائهما في صغره، ولكنه نَسِيَ كليهما منذ نزوحه من مسقط رأسه قبل خمسة وعشرين عامًا.

تعجَّب، كيف له أن ينساهما كل هذه السنوات الطوال؟ وما السر وراء تذكره لهما الآن؟!

ورغم أن شعور السعادة والفخر بما أنجزه لا يزال يغمره، إلَّا أنه شعر بخجل شديد من نفسه، وانقباض في قلبه.

فركن إلى نفسه برهة، وأخذته الذكريات إلى الزمن البعيد الذي كان فيه الولد المدلّل عند والديه. وبينما هو وسط رائحة الذكريات تلك قرر أن يغيِّرَ وجهته، وأن يذهب لزيارة قبر والديه بعد هذه القطيعة الطويلة التي لم يُلْقِ لها بالًا من قبلِ.

ركب سيارته الفارهة، وقادها بنفسه قاصدًا مسقط رأسه مباشرة دون أن يعود لبيته، ويخبر أسرته عن وجهته... وصل إلى أرض المقابر التي يعرفها، ولكنه فوجئ بأبنيةٍ عالية.. ووجد المكان غير المكان، والقبور التي كان يحتضنها تراب الأرض عن سكون وصمت يخافه ويهابه كل زائر، قد تحوَّلتْ إلى أبراج عالية تطل من عيونها الأنوار، وضجيج الناس. تعجب، ماذا حدث هنا، هل ضلَّ المكان؟!

جرى نحو سائس السيارات يسأله عمَّ حدث، وعن حقيقة الأمر وهل هو في حلم أم حقيقةٍ. فقد جاء ليبحث عن قبر والديه واللافتة الرخامية التي كانت تميّز لحَدَيْهما عن باقي اللّحود إلَّا أنه وجد لافتات بأضواء النيون الزاهية، والموسيقى الصاخبة حتى كاد يظن أنه في حُلم من أحلام المساء. تملّكته الدهشةُ مرة أخرى عندما أخبره السائس بأنه لا

يـدري كيـف كان المـكان، إلَّا أنـه سمـع مـن النـاس أن هـذا المـكان الـذي يضـجُّ بأهـله الآن بتجارتـه كان يومًـا مـا مقـابر.. تلـك الـتي تم نقلهـا بقـرار مـن المحافظـة منـذ عـشِر سـنوات.

أصيـب بنوبـة مـن المشـاعر الـتي سَرَتْ في قلبـه، وعقـله، وجوانحـه تقطعهـا إربًا.. وظـلّ ماشـيًا تائهًـا بـين البنـايات يبحـث عـن مـكان قـبر والديـه، ولكـن بـلا جـدوى، وتأكَّد له الخبر من رئيس الحي.

ازدادت حِـدَّة المشـاعر في قلبـه، وشـعر بوحـدة بالغـة، وخـوفٍ مـن المجهـول. فقـد أصبـح هـو الآخـر بـلا أحـد يؤويـه. حمـل حزنـه وأسـفه ومخاوفـه عـلى كتفيـه، وركـب سـيارته قاصـدًا بيتـه لـيرتمي في حضـن أسرتـه، محتميًـا بجـدران بيتـه؛ لعـله يجـد فيـه الأمـان بعيـدًا عـن معـاول هـذه المشـاعر الـتي لا تزال تقطعه إربًا.

ومـا أن وصـل إلى بيتـه حـتى انزوى في سريره باكيًـا قطيعتـه لوالديـه، وفقدانـه لقبرهمـا ولقـبره الـذي كان مـزارًا في الزمـان الـذي كان. أيقـظ أهـل بيتـه، وقـصّ لهـم هـذا الفقـدان الكبـير، وقـرر أن يبـني قـبرًا آخـرَ لنفسـه ولأسرتـه، ويضـع عليـه لافتـة جديـدة من الرخام تحمل اسم العائلة.

والدموع تطلّ من عينيه أوصى أبناءه بحرقة ألَّا ينقطعوا عن السؤال عنه بعد مماته؛ حتى لا يفقدوه، ويفتقد برّهم.. كما فقد وافتقد والديه.

وهنا قرر أن يكون طموحه في عمله بِنِيَّةِ ترك بصمة في حياته لما بعد مماته.

وهنا فقط .. تحوَّل شعور السعادة الذي كان يملأه، ثم تاه إلى شعور بالرضا يملأ ذاته وكيانه، وينبض به قلبه.

وهنا فقط.. أدرك الفارق بين شعور السعادة بالنفس والرضا عنها، وطارده ذلك السؤال الذي كان لا يعرف له إجابة.

وهنا فقط.. وُلِدَ من جديد بين أحضان أولاده، وروح والديه.

شارعٌ من مَشَاعِر

تارة تراب وبرد وصقيع، وتارة حر وشرد، وأنا قابعٌ في عربتي أجول بها في شوارع المدينة.. من بيتي لعملي ومن عملي لبيتي، والتكييف يعمل من وراء شبابيك الزجاج المقفلة، وصوت الموسيقى يصدح فيزيل عناء اليوم، وتأفف العقل من متاعب العمل، ومطالب الأهل والبيت.

وفجأة هطلت الأمطار كالسيول، واشتد البرد، وتلهف الناس كلٌّ في طريقه مهرولًا إلى بيته بين مترجّلٍ ومستقّلًا سيارته هروبًا من غضب الأجواء.

نظرت إلى جندي المرور هناك عند الإشارة، ودورية مرور هناك عند الرصيف من ضابط وجندي يقفان تحت المطر والبرد والهواء، وعمال البناء على السقّالات المعلّقة والهواء، الجميع مشغولون بأعمالهم، والنهار يلفح وجوههم دون أن يعبأ بهم أحد.

مررت من الدورية بسلام، وما زال عسكري المرور واقفًا في مكانه في ثبات. أكملت الطريق إلى منزلي، وابتسمت

متعجّبًا في نفسي، كيف نشتكي من وراء النوافذ الآمنة المغلقة، وغيرنا يعمل بجد على الطريق، ولا يشتكي، ولا يغترّ.

أخيرًا وصلت إلى أسفل المنزل الذي أسكن فيه، وقد صفا الجو، وهدأ المطر، وهدأت الأجواء، وبانت أشعة الشمس على استحياء من بين السحاب.

وفجأة وعلى غِرّة، حدث هرج ومرج، وتجمّعت دوائر من البشر، ثم قدوم سيارة شرطة مدرعة يخرج منها ضابط المفرقعات، ذلك الذي يبدو كرجل فضاء من كثرة المُعِدّات التي يحملها فوق ظهره.

وقف الكلّ يراقبون ويدعون عن بُعْدٍ، وقلوب الجميع كادت أن تنفجر في الصدور من شدة القلق والخوف من احتمال الانفجار.

وقفت متوترا بعيدًا أدعو مع الناس أن تمر هذه اللحظات بسلام.

وبعد صراع مرير مع الجسم الغريب الذي وضعه أحدهم بجوار إحدى السيارات الواقفة بعناية، ووقت مَرَّ كالدهر، أفرجت الأسارير، وتهلّلتِ الوجوه، وصفّقت الأيادي للأبطال الذين أنجزوا المهمة، وأبطلوا مفعول العبوة الناسفة، تلك التي لو كانت قد انفجرت لتحوَّل الحيّ كلّه إلى أشلاءَ، وبِرْكة من الدماء.

خرجت من سيارتي، وتركتها في المكان المخصص لها، وابتسمت، وصعدت إلى سكني، وارتميت في سريري، ونمت في أمان.

حَقِيبَةُ مَشَاعِر

بعد أن ثَقُلَتْ عليه همومُهُ، خرج على غير عادته يحمل حقيبة همومه على كتفيه بعيدًا عن مكان عمله، وذهب بعيدًا بها إلى مدينة أخرى؛ لعله يستطيع إلقاء كل الهموم هناك ليعود إنسانًا جديدًا بلا حبّة هَمّ.

ركب قطار الأمل الذي سمع عنه كثيرًا، ولم يُجرّبْه من قبل، وحجز لحقيبة همومه مقعدًا بجواره.

جلست أمامه ناظرة إلى اللّا شيء من نافذة القطار، وبجوارها حقيبة همومها على المقعد المجاور لها.

تعجب، كيف لها أن تفكر بأسلوبه الفريد نفسه، وفي التوقيت نفسه، وتركب القطار نفسه، والعربة نفسها، وتحجز المقعد المقابل، وبجوارها حقيبة همومها بينما لا يعرفها، لا تعرفه! ولكي يهرب من شدة عَجَبِهِ ذاك، نظر هو الآخر من نافذة القطار إلى اللّا شيء.

وفجأة توقف قطار الأمل على رَجَّةٍ عنيفة، ولا أحدَ يعلم السبب. اهتز الركاب، وانتفضت أنفاسهم من الخوف، وتعلقت الأنظار بعضها ببعض بحثًا عن أمل للنجاة في قطار الأمل.

وبدون وعي وبسرعة الضوء، تقابلت نظراتهما وبريق الحزن في العيون يختبئ وراء بسمة يغلفها أمل النجاة من هول هذه الصدمة العنيفة.

فوجئ الاثنان بانفراط حقيبة كلٍّ منهما لتختلط الهموم طواعية. فجأة، هدأت عجلات القطار، وجثا كلٌّ منهما على ركبتيه ليجمع ما يجد أمامه من هموم، ويضعها في حقيبته المبعثرة. وبعد لحظات مَرَّتْ عليهما كالدهر، تحرّك قطار الأمل، وقد تنفس الركاب الصعداء من بعد خوف حاق بهم. زاد القطار من سرعته حتى يلحق بموعد محطة الوصول. هبطا من القطار على ابتسامة تعجب ممَّا حدث بلا قصدٍ، أو ترتيب. افترقا، وذهب كلاهما إلى غايته.

فتحت حقيبة همومها، فوجدت بعضًا من همومه تبحث عنه ومكتوب عليها اسمه وعنوانه وبعض منها، وقد تزاوج مع همومها، وصنع شعاعًا من الأمل.

فتح حقيبة همومه، ففوجئ ببعض من همومها مكتوب عليها اسمها وعنوانها، وبعضٍ منها قد تزاوج مع بعض همومه، وشكل لوحة من الأمل.

وفي لهفة، اتصل عليها ليخبرها عمَّا حدث، وعن لوحة الأمل، فأخبرته هي الأخرى بلهفة عن شعاع الأمل.

ضحكا من القلب واتفقا على موعد لقاء قريب، يكتبان قصة عنوانها «قطار المشاعر»، ليقصا فيها كيف يُخلق ويعيش الأمل بيد القدر، وكيف تتحول الهموم إلى أشعة، ولوحات من الأمل.

حُطامُ المَشَاعِر

خرج من مكتبه يهرول خارج المؤسسة؛ ليتأكد من صحة الخبر الذي وقع عليه هذا الصباح، وسمعه في الراديو صدفة الآن. لم يشعر بغيابه أحد، فمكتبه في بدروم المبنى، ودخوله وخروجه من باب البدروم، فلا يراه أحد إلّا أثناء التوقيع في دفتر الحضور والانصراف.

جرى في الشارع كالمجنون، ولم يشأ أن ينتظر ميعاد الأتوبيس، فلا هو عنده وقت للانتظار، وليس معه ثمن سيارة الأجرة كي تنقله إلى سكنه في البدروم أسفل حجرة البواب في هذا المبنى الآيل للسقوط بالحي الشعبي العتيق. دارت الدنيا في رأسه وأحشائه، وتحت قدميه. وهو يجري لاهثًا في الشوارع يسابق الناس والعربات؛ لعله يكون هناك في الوقت المناسب قبل أن تموت في قلبه الدقائقُ والساعاتُ. أخيرًا وصل إلى هناك ليجد كومة من حطام البيت، وكومة من البشر يبحثون عن أشيائهم بين وتحت الحطام المتناثر. اندسَّ وسط الأيادي والأقدام يبحث هو الآخر عن شيء لن يجده أبدًا، ولكنها روح البحث عن المفقود.

بعد أن تأكد من أن صندوق الذكريات الذي كان يؤنس عليه وحدته، وفقره، وكهولته بعد رحيل كل أحبّائه قد دُفن تحت التراب بلا رجعة، تحوَّلتْ جبال مشاعره إلى حطام دموع امتنعت عن السقوط.
التقط بملء كفَّيْهِ حفنة من حطام المبنى، ووضعه في جيبه، وعاد يجر الحزن وراءه إلى بدروم عمله ليعيش بقية حياته في خيمة اللاجئين على ذكريات حطامه بعد أن أحكم عليها صندوقه الجديد.

مَشَاعِرُ على المعاشِ

وكتب القلم، وكتب من وحي الواقع والخيال، وبلا توقف حتى أصابه الإجهادُ الذي انتقل إلى أنامل صاحب القلم، وفرغت معدة القلم من الحبر، وشعر بالجوع، فطلب وجبة من الحِبْر ليكتب مزيدًا من الكلمات.

ولكن القلم فوجئ بأن الحبر قد نَفِدَ، ولم يبقَ إلّا حبرٌ مخلوطٌ بأفكار مجهزة من قبلُ.

غضب القلم، ورفض أن يستقبل حبْرَهُ النقِيَّ، فبَقِيَ بدون حبر فصدأ القلم، وحُبِسِت الكلمات.

شعرت الأنامل بالقلم، فنهضت واحتوته، وتملّك القلم قواه وتحامل على نفسه ليكتب ولو بدون حِبْر. اندفعت قطرات الدم ساخنة إلى أنامل صاحب القلم لعلها تذيب ما بقي من حبر تجمَّد في بطن القلم الذي كتب بخط شاحب: «إذا بيع الحِبر بيعت الكلمات وبيع القلم، وأنا قلم لا أباع ولا أشترى، ولو كان مصيري متحفَ الأقلام لهو خيرٌ لي من أن أُحْقَنَ بحبر ملوّث هو رصاص فتّاك».

هكـذا قـال صاحـب القـلم لصديقـه الـذي مـلأت كلماتـه السـمع والبصر بأقلام لا يعلم من أين تُعبِّئُ أحبارَها.
ضحـك الصديـق عاليًـا قائـلًا: الآن حـان توقيـع كتـابي الجديـد، تعـالَ وخُـذْ قلمًـا لامعًـا رائعًـا، فمـا أكـثَّر الأقـلام الذهبيـة هنـاك الـتي تكتـب بـلا أنامـلَ، فالأنامـل يا صديـقي أصبحـت طـرازًا قديمًـا لا يعرفـه إلّا أمثـالُ «أناملـك» الـتي عصـت أن تسـاعد قلمـك أن يقـول «أنا ملـكٌ» لـك، يا صديـقي العيـب في «أناملـك»، وليس في المِداد، أو قلمك.
سكت وصَمتَ قلمي، وأحال نفسه إلى المعاش.

مَشَاعِرُ على سَفَر

الكلمات تخرج من أفواه الناس ولا تعود، ولكنها تذوب في الهواء، فلماذا لا أجمعُ هذه الكلمات مرة أخرى، وأحتفظ بها ليقرأها الناس، وبصوت صاحبها نفسه؟ هكذا سأل صلاح نفسه.

نجح في الإجابة عن تساؤله في خلال أسبوع بفضل مهاراته الهندسية التي أثقلها بدراسته، فصنع طائرة بحجم الذبابة تستطيع تجميع الكلمات والحروف، وتخزينها في ملفات مُكَوَّدة بنبرة الصوت المصاحب لها.

حلَّقتِ الطائرة، بينما تحكَّمَ فيها صلاح بـ «الريموت كنترول» كما يريد، وحلّق هو في سعادة غامرة ملأت قلبه بأمواج الكلمات التي صاح بها، فتطايرت في الهواء هي الأخرى. لم يصدق صلاح نفسه.. كيف استطاع في النهاية لملمة الكلمات المبعثرة في الهواء، والتقاطها بجهازه، وتعبئتها في ملفات إلكترونية في طائرته الصغيرة.

وهو في قمة إعجابه بصنعه أطلق طفل يلهو هناك بنبلته المطاطية قذيفة من الحجر الأسواني على الطائرة، فهوتْ على الفور، وتحطمت تحت قدميه، وملأ الهواء دَوِيَّ انفجار الكلمات لتعلو أصواتها في الأجواء بمعانٍ متناقضة بما فيها من حبٍّ وكرهٍ وخير وشر ومديح ورثاء وشكر ونميمة، فحوَّلتِ السماء إلى بركانٍ وزلزال من المشاعر بأصوات أصحابها وصوته. بكى صلاح على الكلمات، وضحك الطفل على الذبابة التي استطاع أن يسقطها. قرر صلاح ألّا يعود لصنعه أبدًا حتى لا يفضح نفسه والناسَ.

مَشَاعِرُ بلا ذُنُوب

وقـف أمـام الإعـلان مشـدودًا بعـد أن خطفـت بـصره قيمـة الجـائزة الـتي تصـل إلى ربـع مليـون جنيـهٍ للفـائز الأول.. كُتب بخطٍّ كبير ملأ صفحة الإعلان.

تفحّص الإعلان جيّدًا ليرى لماذا كل هذه الجائزة.

فَغَـرَ فـاه عندمـا أدرك أنهـا لـكلِّ مـنْ يرى في نفسـه إنسـانًا بلا ذنبٍ على أن يكتب إقرارًا بذلك.

أغمـض عينيـه عـلى اسـتحياء، وابتـسم في نفسـه ابتسـامة أذابـت أضلعـه، ثم نظـر إلى الجمـوع الغفـيرة الـتي تـكاد تتخطـف الجريـدة وتقـرّ بـأنها بـلا ذنـوب. ضحـك ضحكـة عاليـة عـلم المتسـابقون الـذين هجمـوا عـلى التقـديم عـلى الإعـلان مـا وراءهـا وهم أيضًـا يضحكـون ومنهمكـين في التوقيـع عـلى الإقـرار بخُلُـوِّهم مـن الذنـوب.

ورغم حاجتـه الماسَّـة لقيمـة الجـائزة، إلَّا أنـه ترك المـكان سريعًـا مطـأطئ الـرأس، هائمًـا بـين النـاس، وعينـاه عـلى أرصفـة الطرقـات يبحـث في داخـله عـن ذلـك الإنسـان الخـالي مـن الذنـوب.

ظـل هائمًـا في الطرقـات، نادمًـا عـلى كل ذنـب اقترفـه، ولكنـه لا يـدري مـا إذا كانـت الذنـوب تقبـع هنـاك في مـكان مـا بداخـله،

أم أن قلبه غدا نقيًّا كقلب طفله الصغير الذي تركه في المستشفى يصارع المرض، وحب البقاء.
ظلَّ يسير في الشارع حتي أجهده السير. وقف يستعيد أنفاسه، فإِذْ به يجد مسجدًا صغيرًا، وبابه مفتوحٌ على مصراعيه. دخل المسجد ليصلي ويدعو لابنه بالشفاء، فتلك أكبر جائزة لو تحققت.
ظلَّ على هذا الحال طيلة أسبوعٍ كاملٍ حتى حان آخر موعد للتقدم إلى الجائزة. ذهب لمقر الجائزة؛ لكي يقدِّمَ إقرار خلوِّه من الذنوب لكي يعالج ابنه، ولكنه لم يستطع. أكمل السير إلى المستشفى، وقلبه يئنُّ من الألم على ابنه. وما أن وصل إلى المستشفى حتى جرى عليه الطبيب يبشره بما كان يتمنَّى. وقع عليه الخبر وكأنه قد حيزت له جوائز العالم أجمع. ابتسم في نفسه، وجرى على ابنه يقبّله، فقد أنزل الله عليه جائزة السماء التي لا تغني عنها كلّ جوائز الأرض.

قَلْبٌ حُرٌّ طَلِيق

مُنْذُ ولادته وهو مختلف في سلوكه وعمله وهواياته. فما من مرة تحين فيها مناسبة إلَّا وأخبرته أمّه بأنه لم يبكِ لحظة ولادته، وكأنه يعلم أن الحياة القادمة كلها معارك.

وهو طفل، كان مختلفًا وأكبر من عمره بعشرة أعوام. كان عقله مُخْتَلِفًا في كيفية رؤيته وتفسيره للأمور. كان قلبه مثل ورق الشجر الأخضر في ربيع دائم. ربَّتْه الحياة بقسوتها، والناس بأفعالها الحلوة والمرة. وكلما جرى به العمر أصبح عقله وقلبه في عِرَاك مُستمر، مرة لصالح قلبه، ومرات لصالح عقله. ومضي به العمر سريعًا، وأصبح عقله لا يعرف معني الصبر، كان عقلًا متحفّزًا وثائرًا حتى على القلب الذي يدفع إليه الدماء طواعية مع كل ثانية يفكر فيها. وظل العقل مفتوحًا على مصراعيه لكلّ مظاهر الحياة بلا تردُّد. ورويدًا رويدًا، تقوقع عقله في جمجمته طواعية، وزهد الثورة على اللَّا مبالاة والسطحية، وأصبح ينظر إلى العالم الخارجي من وراء عينيه، ويسمع من وراء أذنيه، ولا يُلقي بَالًا

لـكلّ مـا يعكّـر صفـوه أمامـه وخلفـه وحـوله، وكل مـرة يكتـفي بهـزة مـن جمجمتـه تَعْقُبُهَـا ابتسـامة لا يـدرك مغزاهـا سـواه. ورويـدًا رويـدًا أصبح القلـب- الـذي كانت حـدود عالمه الضلوع- يتسع بمـلء صـدره، يتمـدّد وينكمـش كما يشـاء، ويزيـد مـن نبضاتـه ويبطئهـا كيفما وأينما يشـاء، بعيـدًا عـن أوامـر العقـل القاسـية، وأفـكاره الثـائرة.

ولأول مـرة في عُمـر حياتـه الـذي لم يتعـدَّ الثلاثـين عامًـا، بـدأ القلـب يشـعر بأنـه حُـرٌّ طَلِيـقٌ مِلْـكٌ لنفسـه، وليـس لعقـله. بـدأ يخفـق كيفمـا وأينما يشـاء. مـرة كالطفـل البـريء، ومـرة كالشـيخ الحكـيم، ومـرة كالفارس المغـوار عـلى ظهـر فرسـه بـلا سـيف، ومـرة بألـف سـيف. تارة يعيـش العمـر بأثر رجـعي، ومـرة يعيـش الأيـام القادمـة، وإنْ أصرّت ألَّا تأتي. وهنـا أصبـح لصاحبنـا عقـلٌ زاهـدٌ، وقلـبٌ حـانٍ. وفـرح صاحبنـا كثـيرًا بهـذا الإحسـاس العجيـب، رغـم أنـه يعلـم تمـام اليقين أن ذلك الإحسـاس يغـاير طبيعتـه، بـل وعلى النقيض، ولكنه قد ارتاح جِدًّا لهذا الإحسـاس. ولم يمـضِ شهـرٌ واحـدٌ عـلى هـذا الإحسـاس السـاحر، حـتى أفـاق العقـل فجـأةً مـن زهـده، واسـتيقظ القلـب مـن خَلْوَتِـهِ، وعـاد صاحبنـا إلى طبيعتـه، وابتسـامة واسـعة تغلّـف شـفتيه ولا أحـدَ يعـلم سِرَّهـا سـوي طبيبـه الـذي أعطـاه الحقنـة السـحرية الـتي تُذْهِـبُ عقـله عـن الواقـع كلّمـا ثارت عليـه أعاصـير الذكـريات.

مَنَادِيل السَّعَادَة

شعرت بضيقٍ في صدري، صحيحٌ أنه لا يؤلمني، ولكنّي لا أستطيع تَحَمّلَهُ.

قررت النزول إلى الشارع المقابل لمنزلي لأنْدَسَّ بين زحمة وضجيج الناس، فقد اكتشفت منذ سنوات أن السير بين الناس علاجٌ فعّال لضيق الصدر، فمع كلّ خطوة تتناثر من نفسك قطعةٌ من الضيق اللّاصقة في قلبك. وبعد أن أخذت شوطاً من السير أراحني بعض الشيء لمحت بائعًا للمناديلَ. توقفت عنده، ونظرت لعينيه الغائرتين، وبشرته الجافَّة التي تعكس شقاءه من طول تعرُّضِهِ لشمس النهار. ابتسمتُ، وألقيت السلام، وطلبت منه علبةَ مناديل، وأنا أسأله عن حاله، وحال يومه وأحوال بضاعته. مَدّ يده إليَّ بعلبة، ولكنّه فجأةً، وبدون سابق إنذار، وكأنه يعاقبني على نزولي إلى الشارع، سألني بصوتٍ حادٍّ وغضبٍ ممزوجٍ بماء الحزن، وقلَّة الحيلة تملأ عينيه: «هوّ يعني ربنا مش هايرزقني بقي زي كل الناس دول؟"

نظرتُ إليه بابتسامةٍ مغموسةٍ في شفقة:

« أَلَستَ راضيًا بحالك، وكل ما لديك.»

أجاب وهو لا يزال في لحظة الغضب المملوءة بالنقمة «وهو أنا معايا حاجة، أنا مش معايا غير الفقر، وقلة الحيلة». رددت، وأنا أمُدّ له يدي بثمن علبة المناديل، لديك الكثيرُ وأنت عنه غافلٌ. وما زالت علبةُ المناديل في يده، وثمنُها ما زال بين أصابعي، ردّ عليّ بحالة من اللّا مبالاة وبصوتٍ مملوءٍ بالشجن، وكأنه يغني كلماته: «الكلام حلو آه، لكن الفعل مش قادر، والأمل يا بيه بعيد زي السماء عالي". ومع أنّي انتشيت بلحن صوته المملوءِ بالطرب والشجن حتى وددت ألّا يتوقفَ: «وماذا لو حسبنا كلّ دقة قلب بجنيه ؟ وكل نظرة عين بجنيه ؟ وكل خطوة قدم بجنيه ؟ كم ستدفع مقابل ذلك؟ وهل تستطيع أن تدفع؟»

ردَّ الرجل بعينين مبتلّتين بالعَبَراتِ، وقد تأثر بالكلمات: «عندك حق يا بيه»، ثم صمت الرجل برهةً، وأطرق بعينيه تحت قدميه، ثم اعتدل ليردَّ بهذه الكلمات بصوت مملوء بالشجن «دقة قلب واحده يا بيه بالدنيا وما فيها، ونظرة عين واحدة بالدنيا وما عليها". وفجأة تركني الرجل وهو يتمتم بكلمات لم أتبينها، ولكني شعرت بها.

مشيت أنا الآخر وعلبة المناديل في يدي، ولكني اكتشفت أن ثمنَها ما زال في يدي الأخرى، فقد انشغل الرجل عني بكلماتي وكلماته ونسي ثمنها. ناديت عليه، ولكنه لم يحفلْ بالنداء، وظل في طريقه وكأنه يريد أن يخبرني بأنه قد وعى الدرس. مشى يَعُدُّ نبضاتِ قلبِه، ونظراتِ عينيه وخطواتِ قدميه وهو يترنّم ويشدو: «يا قدم هَدِّي الخُطَي على أرضي، ويا عين قُدَامك السما واسعه بُصي واتحَنّي، ويا كلِّ دقةِ قلب افرحي وطبّلي وغنِّي، الدنيا قدامنا بتجري واحنا وراها بِنِحبِي ونقول يا أرض مفيش قدِّي".

وقفت أردِّد وراءه كلماتِه، ووضعت ثمنَ علبة المناديل في جُعْبتي، وكتبت عليها التاريخَ تذكارًا.

الْعِلَاج عَلَى نَفَقَةِ الْقَدَر

وقفت متقوقعةً حول ذاتها أمام سطوة الرجل المنتفخة أوداجُه، وهيبة وجهه المتجهم المفعم بالحمرة تجعل الكلمات تتجمد على طرف لسانها.

جمعت كل ما لديها من قوة، وصرخت في كبرياء والدموعُ تفور من مقلتيها: أرجوك أحتاج الموافقة لعلاج طفلتي الوحيدة على نفقة الدولة، فلم يتبقَّ لي بابٌ إلَّا بابَك، ولم يعدْ لابنتي فرصة في الحياة.

نظر إليها الرجل بلا مبالاة، وقبل أن يُوقِّع على الطلب جاءته مكالمةٌ تليفونية، نَسِيَ فيها السيدةُ التي تقف أمامه تستجدي عطفه، وإمضاءَ قلمِه.

فجأة أمسك بالقلم، ووقَّع على الأوراق بالموافقة والتنفيذ العاجل.

تعجّبتِ السيدة من موافقة الرجل، وظنت أن سيلَ الدعوات التي أمطرته بها لتستجدِيَ موافقته هي السببُ، فهي لم تسمع كلمات ابنته الوحيدة بصوتها الواهن على التليفون وهي تستجديه أن يصنع أيَّ معروف في شَخْصٍ اليوم من أجلها بعد أن فاجأها الطبيب بإصابتها بمرض عضال قد لا يفارقها مدى الحياة.

اغرورقت عينا الرجل بدموع الحسرة على مرض ابنته، واغرورقت عينا المرأة الماثلةِ أمامه بدموع الفرحة؛ أملًا في شفاء ابنتها الوحيدة. خطفت الأوراق من أمامه غيرَ مُصَدَّقَة، ومشت داعية له على طيبة قلبه الذي كان كالحجر الصَّلْد.

خَرَّ الرجل على كرسي مكتبه منكمشًا في نفسه، وقد تحوَّلت الحُمْرة في وجنتيه إلى ألوان الطيف مجتمعةً تحسُّرًا على ابنته. جلس يفكر كيف يسرع من إنهاء إجراءات علاج ابنته عَلَى نَفَقَةٍ الدولة.

الْحُبُّ الضَّائِع

استيقظ على رنين الهاتف، فقد نسي كالمعتاد أن يغلقه قبل أن يَخْلَدُ إلى نومه. نظر بتثاؤب إلى ساعة الحائط، تلك التي تشير إلى الساعات الأولى من الصباح. تعجَّب كثيرًا ممّنْ يتصل به قبيل الفجر. أمسك الهاتف ليلقيَ نظرة على من اتصل عليه؛ لكنه راح في نوم عميق! استيقظ مرة أخرى على رنين الهاتف.. فرك عينيه ونظر إلى شاشة التليفون هذه المرة، فإذْ به يفاجأ برقمها القديم الذي لا يزال يحتفظ به رغم انتهاء الخطبة بينهما منذ أكثر من عام. لا يدري لماذا ترك رقمها على هاتفة ! ولكنه لم يستطع. فما زال حبُّها يمس أوتار قلبه الممزق، وها هو القدر يبدو أنه يخلق له فرصة أخرى. تذكر أيامه معها، وكيف أنه كان ينتظر هذه اللحظة منذ عام مَرّ عليه مرور الخريف. قفز من سريره ليردَّ على اتصالها، ويسعد بسماع صوتها الذي أدرك الآن كم افتقده! ولكن صوت التليفون صمت فجأة، ولم يعد. انتظر لدقائقَ مَرَّتْ عليه كسنينَ عجاف، ولكن التليفون ظل صامتًا. لَمْ يُطِقْ أن يصبر على هذا الصمت، وقرر أن يتصل هو هذه المرة. فوجئ بصوت امرأة أخرى يردُّ في خجل: «عفوًا، لقد اتصلت بهذا الرقم الغريب بالخطأ.»

صَهيل الْمَشَاعِر

وما أنْ رأى الشيخُ يد الرجل الغليظة تهبط بسوط الكرباج بقسوة على ظهر الحصان الذي يجرُّ العربة خلفه بأنفاس لاهثة في عزم يكاد ينفرط منه رغم حمولتها الزائدة، ورغم شدة الحر القائظ، حتى جرى مهرولًا بكلّ عزمه ليُمسك بيده قبل أن يُلهب ظهر الحصان الذَّابلِ.

ثار الرجل غاضبًا علي الشيخ، ودارت معركة كلامية وجسدية حامية تَقَدمَ فيها الشيخ -رغم تَقَدُمَ عُمره- فشل المارة في فضِّها حتى حضرت الشرطة. اتهم الرجل الشيخ بمنعه عن حصانه. سأل الضابط الشاب الشيخ «ما الذي جعلك تمنع الرجل عن حصانه وهو مِلْكُ له وأعلم به؟

رَدّ الشيخ بلسان حكيم وبلا تردد: «لأني أعلمكم بصهيل مشاعر الحصان، فما زالت أسواطُ الحياة تُلهب ظهري حتى هذا العمرِ.»

نظر الضابط إلى الشيخ بعينين لامعتين، ثم التفت إلى الحصان حاملاً معه النظرات نفسها، حفظ القضية وهو يَربِت على ظهر الحصان الذي وقف مستعدًّا للسير بحمولته بعد أن استردَّ بعضًا من أنفاسه أثناء المعركة.

انْقِلَاب النَّوَايَا

جاء ميعاد خروجه مع النفس للترويح عنها من ضغوط الحياة. تزيَّن بهندامه وكأنه ملك بلا تاجٍ. وضع النقود في جيبه وكأنها رصاصاتٌ في سلاح الفقر. امتطى عربته كأنها بساط سحري فوق الأرض. انتفخت أوداجه حتى ظن أنه جمع، وليس بفرد. انتشى كأنه شرب ماءً مُسْكِرًا من فراتٍ عذْبٍ. انتفضت عروق ملامحه، وتأبّط قرينه وكأنه بلا ذنبٍ. جالَسَ قومه حتى ظن أنه فوق الجميع لا مفرَّ. ثم كانت المفاجأة الكبرى، عندما هَمَّ ببدءِ الحديث.

فغر فاه، واندهش عندما فوجئ بأعضاء جسده وحواسّه تنطق عنه بكل أمر. أصابه صمم، فكيف لأنامله وساعديه وقدميه وعينيه وأذنيه أن ينطقوا عن أفعاله بكل شر. تعجب، كيف لكل جوارحه أن تنطق واللسان فقط هو القادر على النطق. كانت المفاجأة طامةً كبري، أنسته كل ما كان مقبلًا عليه من نهي وأمر. آثر الصمت عندما أدرك أن أعماله بلا وزن، فقد نطقت الحقائق عنه، وبانت دوافعه، وانفضح الأمر.

وهكـذا تعـلم ألَّا ينافـق أبـدًا جوارحـه، ولـو بيـده الأمـر.. تعلم أنَّ الجوارح كلُّها لسانٌ إذا أراد الحق.

ومنـذ تلـك اللحظـة الفاصـلة وقـد أصبـح صديـقي بـئرًا عَذْبَـةً لا ينضب ماؤها من كلمات الخير أبَدَ الدهر.

قِطَارُ الدِّيَار

وبعد انتظارٍ طال على المحطة، ركبت القطار الَّذِى أتَى مُزْمَجَرًا وكأنه يَحثّ المسافرين أن يأخذوا أماكنهم بسرعة وخِفّةٍ وهِمّة. وما أن أخذت مقعدي حتى بدأ القطار وكأنه قطار العمر، يحمل على عجلاته جسدًا هائلًا يئِنّ بأزيز قلوب وعقول أتت من كلِّ فجٍّ عميقٍ لتلقي بحمولة أجسادها وأفكارها فيه.

رغم أن الْعُيُونَ شاخصة على بعضها بعضًا، إلَّا أن بواطن عقولها وحجرات قلوبها تثير فيها أفكارًا وأسرارًا لو خرجت لأشفقت على بعضها بعضًا. عندما نظرت إلى العيون وجدت مزيجًا من مختلف النظرات التي تحمل معها الأسرار تُحاول أن تقفز من مآقي العيون إلى شواطئ الأهداب. فتلك عيون تائهة، وتلك مكفهرة، وتلك حزينة، وتلك شقية، وتلك عَفِيَّة، وتلك لا تعرف أين هي من الوجه الذي يحملها. حمدت الله أنَ الملكية الفكرية للأسرار والأفكار هي حكر على أصحابها دون الآخرين حتى يظل أبعد مدى للأسرار هو شواطئ العيون ودموع مآقيها. أخيرًا، وبعد أن قرأت آلاف القصص القصيرة فِي عُيُونِ المسافرين بجواري وأمامي

وعـن بُعْـدٍ، توقَّـفَ القطـار في محطـتي دون أن يسـتأذن مـني. تمنَّيـت لـو أطـال وقوفـه في المحطـة لأقـرأ مزيـدًا مـن القصـص، ولكـنَّ القـرار كان قـرارَ القطـار. نزلـت عـلى عَجَـلٍ ولم أنتبـهْ إلى أن العديـد مـن الـركَّاب قـد نزلـوا مـعي، أو قبـلي في محطاتهـم السـابقة. نظـرت عـلى القطـار ملوِّحًـا له وكأنـه صديـق عتيـق. لم يعبـأ القطـار بي وَجَـرَى مُسْرِعًـاً نحـو محطتـه الأخـيرة وهـو يـصرخ في الفضـاء بصوتـه المُلفـت معـبّرًا عـن غضبـه عـلى الـركاب، ومـا خلّفـوه فيـه مـن أفـكار هـو وحـدَه الـذي يدركهـا، ويـشم رائحتهـا. جـري عـلى قضبانـه مسرعًـا وكلُّـه فـرح لقُرْبِـهِ مـن بيتـه في محطتـه الأخـيرة ليأخـذ هنـاك قسـطًا مـن الراحـة بعيـدًا عـن زحـام البـشر وأحزانهـم، وهمومهـم الـتي أتعبتـه وأسـكرته. ركبـت التاكـسي إلى مـنزلي، وكلِّي فرحـة لعـودتي إلى حجـرتي وَمقعدي الْمُفَضَّل بعد غياب طوال النهار.

نسـيت القطـار بمـا كان فيـه، ولكـن مـا أن وصلـت لبيـتي حـتى سمعـت صفارتـه المُدَوِّيـة في الأفـق، وكأنـه يخـبرني بفرحتـه معلنًا عن نشوة وصوله إلى بيته ومحطته الأخيرة.

ابتسمت في نفسي، وهرولـت نحو الشرفة ملوِّحًا لصديـقي القطـار العتيـق، مشـاركًا إيّاه فرحـة عودتـه مثـلي إلى بيتـه بعـد عنـاءِ يـومٍ طويلٍ.

الحُزْنُ الجَمِيل

على غير العادة، استيقظت مبكرًا هذا الصباح بعد أيام مضت من الإرهاق والتعب. تعمّدتْ أن تفتح صندوق «الميك أب» الذي كادت أن تنسى مكانه لتتزيَّنَ في هُدُوءٍ وهي تتأمّل كلَّ ركن من ملامح وجهها الذي علاه الشحوب، وهي من كانت زميلاتها في العمل دائمًا ما يُبْدِينَ سعادتهن بجمالها وإشراق وجهها.

استغربت مَلَامِحُهَا، ولكنها لم تعبأ، وهي في طريقها للعمل. استغربها كل من رآها وَيُعْرِفُهَا. وما أن دلفت إلى الطرقة المؤدِّية إلى مكتبها حتى تعجَّبَ الجميع مِنْ هيئة مَلَامِحِهَا التي تطغى عليه الزينة.

اقتربت منها إحدى صديقاتها، وهمست لها، لماذا كل هذا الجمال الصناعي على وجهك ونحن تعوَّدْنا أن نرى جمالك الطبيعي كَإِشْرَاقَة الصباح دون تكلف، أو زينة.

وفي مداعبة نسائية طلبت منها زميلاتها: «اخلعي عنك هذه القشرة من الجمال ليظهر كل الجمال في ملامحك وروحك».

رفضت بشدة، ولكن تحت وَطَأَة إصرارهن رضخت، وأزالت

طبقة الزينة التي تعمدت أن تغطي بها ملامحها هذا الصباح.
وما أن أزالت الزينة حتى شهقن جميعًا عندما رأين الإجهاد والحزن يُغَطِّي حسن جمال وجهها الملائكي.
حينئذ أدركن لماذا جاءت على غير عادتها متنكرة في طبقة من الزينة. تعجبن كيف للإجهاد والحزن أن يعرف طريقه نحو كل هذا الحسن والبهاء!
تنهدت وهي تصنع ابتسامة باهتة على شفتيها، وأومأت اليهنّ قائلة: «الحُزْنُ لَا يُعفِي الجَمَال مِنَ الاِحْتِلَال».

الْفَشَلُ الْجَمِيل

كان يومًا عجيبًا لمَنْ في مثل عمري آنذاك، فقد كانت أول مرة أتحسَّس فيها وجهه بأناملي الغضّة، وأشمّ فيها رائحة معدنه الطيب. أحكمت عليه راحتي غيرَ مصدق إلَّا وأنا أمام الدكانة، وعيناايَ تبرقان محدّقتان على الرفّ - المملوء بما طاب، وراق للعين - ويداايَ تمتدّان مرتعشتين لصاحب الدكان. نظر الرجل إلى كفِّيَ المرتعشة، ففوجئت بالذي يأخذني من يدي بلا رأفة ليدفعني بقوة إلى خارج الدكان وكأنه يقول كيف لمثلي أن يمتلك شيئًا نفيسًا كهذا المبلغ في كَفِّه النحيل المرتعش. وهكذا انتهت أول محاولة حقيقية للشراء».

تلك كانت قصة صديقي التي قصَّها عليَّ وهو يغلق باب سيارته الفارهة بهدوء وثقة، وهو في طريقة إلى المطار ليلحق باجتماع مهمٍّ لشركته عبْرَ البحار. ابتسمت لصديقي ملوِّحًا له بالتوفيق، وأن يبارك له في ذلك الشيء الذي لا أدري كيف احتفظ به منذ طفولته، ويعلقه في عنقه، وكأنه كان يعلم بحاجته؛ إليه ليذكره بأول محاولة فاشلة للشراء من عرق جبينه، ولكن لم يصدقه فيها صاحب الدكان.

وكنت أنا ابنَ صاحب الدكان الذي شَهِدَ تلك المحاولة؛ وبسببها أصبحت مديرًا لأحد أفرع شركته. لم يَنْسَ أبدًا أني كنت أنظر لوالدي صاحب الدكانة ليس بعيْنَيَّ، ولكن بعينَيْ صديقي وهي تترقرق بالدموع، وبيديه اللتين ترتعشان بالخوف من فشل المحاولة.

ظللت واقفًا في مكاني كالعادة؛ لكي أطمئن على صديقي حتى تقلع الطائرة، وأعود من حيث أتيت، وابتسامة صاحبي ترافقني حتى يجدِّدَها بعودته.

خَيَالٌ مِنْ حُبّ

حانت ساعة الصفر الرومانسية التي ينتظرها منذ أسابيع مرت عليه كألف شهرٍ. اقتربت منه وهي في طريقها إلى الجراج ناحية سيارتها الحمراء كلون قلبه الخجلان. استجمع قواه العاطفية، وقرر هذه المرة أن يقترب منها بجرأة. اقترب من ضياء عينيها، ومال ناحيتها وكأنه مُنَوَّمٌ مغناطيسيًّا تحت تأثير دقات جمال الخجل الذي يموج في عينيها. ولما ابتسمت له بِرِقَّةٍ، نبضت كلُّ خلية في جسده المتيَّمِ وعلتْ دقاتُها، ورقصت على صوت محرك سيارتها التي رجا أن يحتضنها بفيض مشاعره.

وما أن بدأ يحرِّكُ شفتيه ليقول لها: «أحبك» والتي تدرب عليها طوال الأيام السابقة، حتى وجدها وقد أدارت محرك سيارتها تاركةً الجراج وهي تحييه برقتها الحانية:

«صباحُك جميل زيك يا أسطي محمودُ».

تجمّدتْ الابتسامة على شفتيه، وتجمَدتْ قدماه الحافيتان حتى اختفت سَيَّارَتُهَا عن عينيه لتبقى صورتُها معلقةً على جدران قلبه المحطم.

ابتلع أنفاسه، وأفاق من غيبوبته على نداء عميلٍ، أو زبونٍ آخرَ في سيارته الفارهة.

لملم محمود أنفاسه، وجرى نحو السيارة التي لم يبالِ بلونها، رغم أنها هي الأخرى حمراء فاقع لونها، مصمص شفتيه، وطبطب على قلبه حتى يراها مرة أخرى لتظلَّ في أعماق قلبه خيالًا من حب.

عِنْدَمَا يَضْحَكُ القَمَرَ

جلس على أريكته في شُرْفة حجرته المطلّة على الشارع الجانبي، محاولًا أن يخرج من حالة الحزن التي تسيطر على قلبه وعقله منذ أمس. حالة لم تمرّ عليه من قبل رغم تصاريف الزمن التي تعوَّد عليها مرارًا وتكرارًا. حالة لا يعرف أسبابها لكي يعالجها ولا المتسبّب فيها لكي يتحدث إليه، ويخاطبه ويصالحه، حتى لو كان هذا الآخر نفسه.

تمدَّد مستريحًا، وبصره معلقٌ في السماء التي رغم حلول ظلمة الليل، فلا زالت تتزين بضياء القمر، و تتلألأ النجوم. الشارع هادئ تمامًا، ويكاد يخلو من المارة والظلام يكحل أعين الليل، فلا يبدو في السماء سوى قمر يلقي بأشعته في رومانسية حالمة ليجعل من الليل «كافيه» للقاء الأحِبَّة.

نظر إلى القمر، وتمنَّى لو يهبط من عليائه ليجلس بجواره في شرفته ليحادثه، ولكنَّ القمر لم يأتِ، وحتى لو أتى، فلن يتحدث، ولن يزيح من حزنه شيئًا.

وفجأة شعر بالقمر يضيء بجانبه، ويمسح بكفيه على كتفيه مزيلًا الشجن عنه. نظر بجواره غير مصدّقٍ كيف هبط

القمر من عليائه ليجلس بجواره، كيف يصبح للقمر راحتان من بلسم، كيف للقمر أن يتنفس ويهمس، بل ويبتسم؟ شعر كأنه يرى معجزة، ولكن تبدّد العجب، وامتلأ وجهه بابتسامة واسعة تضيء كالقمر عندما وجدها هي بجانبه زوجته وحبيبته كما عهدها أبهى من القمر بعد أن غابت عنه؛ بسبب عاصفة غضب شتوية.

مَأْذُونُ المَشَاعِرِ

سـألته ودمـوع الحـب تترقـرق في مقلتيهـا، مـاذا أعـني لـك؟ وبـدون تردد، ردّ عليهـا وعينـاه تفيضـان رقـةً تسـع العـالم بأسره: أنت لي وفي قلبي العالم كله.

وهي لا تزال تنظـر إلى عينيـه، أعـرف أني لـك العـالم، ولكـني أدرك أني لـك العـالم الثالـث، رغم أنـك كنـت لي دائمًـا العـالم كلـه الأول والثـاني والثالـث منـذ أولى لحظـات زواجنـا. وقعـت كلماتهـا عليـه، تلـك الـتي لم يتوقعهـا أبـدًا منهـا كوقـع الصاعقـة.

شـعر بخجـل وارتبـاك شـديد مـن هـول المفاجـأة الـتي كشـفت عـن جبـال الثلـج تحـت سـطح الميـاه في بحـور عينيـه الزرقـاء. حـاول أن يهـرب مـن نظـرات عينيهـا الـتي يراهـا فيهمـا الآن عالمه الأول والثاني والثالث.

أطـرق إلى الأرض ناظـرًا تحـت قدميـه لعلـه يهـرب مـن الاعـتراف بالمفاجـأة الـتي حـاول أن يخفيهـا عنهـا طـوال السـنوات العـشر الماضيـة هي عمـر لقائهمـا الأول عنـد مـأذون المشـاعر كما كان يحلـو لـه أن يسـميه. وبعـد لحظـات رفـع عينيـه عسـاه يسـتعطف عينيهـا آسـفًا، ولكنهـا وعلى

عكس كل المرات السابقة، كانت قد رحلت وهي في كامل قواها القلبية والعقلية مع سراب ظهيرة هذا النهار القائظ من أيام خريف العمر.

هرول وراءها كالطفل الصغير بقلب متعب لا يعرف سره سواه. جري محاولًا أن يلحق بها، وإحدى يديه الواهنتين تحمل المظلة ليحميها من أشعة الشمس المشاعر الحارقة، ويده الأخرى تقبض بحنان على الهدية التي طالما حلمت بها طوال العام الماضي.

بَيْتٌ مِنْ مَشَاعِر

ودون أن يدري بها أحد، تسللتْ وخرجتْ من الحارة الضيقة قاصدة الشارع الكبير وهي تحمل جبالًا من الهموم على كتفيها، وعلى شفتيها، وفي عينيها اللتين امتلأتا بالحزن. مشت هائمة وهي تزفر رياح الهموم الثقال، والدموع تسيل من مقلتيها بعد أن قررت اللَّا عودة إلى بئر الدموع بلا رجعة. وفجأة أفاقت على أنفاس تلهث وراءها، ويد تطبطب على كتفيها، وابتسامته ترفرف أمام عينيها، وصوت يحمل، وينثر البهجة والفرحة حولها.

وبعد عتاب طويل، ووعد منه بعدم إلزامها بما لا تطيق، ودون أن تدري، تسرّبتْ إلى قلبها الطمأنينة، وتسللتْ ابتسامته إلى شفتيها، وتبدل طعم الحزن في دمعها إلي فرحة بألوان الطيف. نظرت إليه بحُنُوّ ودلال، نظرة ذابت معها كل الهموم والأحزان. تأبطت ذراعه ومشيا ناحية البيت الكبير، وكأنها وُلِدَتْ على أعتاب الفرحة من جديد.

شَبَابِيكُ المَشَاعِرِ

شعر كأنه يلعب لعبة "الشطرنج» بحكمة وذكاء يحسد عليه وما أن اقترب من نهاية مشوار السباق حتى فوجئ بقطع الشطرنج المتراصّة بحكمة تنهار من وسط اللعبة حتى نهايتها على الأرض تباعًا بعد أن نالتها شظايا حصى الثرى الطائشة. نظر إلى قطع الشطرنج بحسرة، وأخذ يقلب فيها يمنة ويسرةً لعله يدرك ما حدث، ويعيد بناءه كما بدأ، ولكن القدر لا يعيد ما قد وقع. ذرف من مقلتيه دمعات تحمل معها حسرة على ما كان يبنيه مع كل لمسة من أنامله، وهي تلتقط كل قطعة من قطع الشطرنج. ترك الدموع تنساب على وجنتيه، ولم يشأ أن يجففها؛ لعلها تنساب، فتغسل قلبه وعقله.

شعر بأن كل أسباب السعادة حوله تقطعت، تلك التي كان يعكف عليها طيلة مشوار الحياة. كل مكان يبنيه وعن نية وإرادة في صبر وعمل شاق لم يصل إلى بر الأمان بعد! أطرق لبرهة وهو في ظل هذا التيه. انتبه إلى أن هناك الكثير والكثير لم يَضِعْ سدًى، وأنه ما زال هناك أسباب للسعادة

وجد فيها ضالته وهو يبحث في داخله وحوله عن أي سبب يجلب إلى قلبه السعادة فيصدقها.

تعمّد أن يتلصّص على أي فرصة تسمي السعادة. مرة من خلال علاقة طيبة مع سائس جراج، أو بوَّاب عمارته أو زميل عمل، أو صديق عمر، أو قريب يشعر بهمِّه، أو عمل يخلص فيه، أو مساعدة يقدمه عن طيب خاطر لشخص لا يعرفه، أو كلمات تعبر عمَّا يجيش في صدره، أو حلم يعيش على خيالاته، أو كلمة حلوة من لسان طيب، أو سفر لمكان ولو غير بعيد، أو نظرة إلى وجه طفل ضاحك، أو شيخ لم تهزمه شيخوخته، أو أم منهكة وأطفال يمسكون بذيل جلبابها، أو امرأة خرجت تطلب الرزق الحلال بسواعدها. وهكذا بدأ يكتشف أن للسعادة أبوابًا وشبابيكَ أخرى وبيوتًا، وحارات، وشوارع غير التي كان يعرفها ويعيش العمر على بناء مدن لها.

اكتشف أن السعادة ليس لها وطن ولا دين ولا لغة، بل هي كالهواء العليل نتنفسه، وكالماء نقيًّا نشربه أينما وكيفما وجدناه. وهو وسط زحام المشاعر هذه التي جعلته يعيش حالة شغف في لقاء السعادة في أي شباك يطل منه على سبب من أسباب السعادة، فوجئ بمكالمة غابت عنه منذ ثلاث سنوات عجاف.

سنوات فرقة وجفاء من زوجته التي كانت تملأ عليه الزمان والمكان. زوجته التي لم يظن لحظة أن تتخلَّى عنه، حتى لو تخلَّى هو عنها. زوجته التي تركت بيت الزوجية. فجأة وبدون سابق إنذار بعد أن اتهمها في هذا اليوم العاصف بالتقصير في مشاعره، رغم أنه يعلم علم اليقين أنها هي التي تصون، وتدلّل مشاعره، وأنه هو الذي يهدر مشاعرها. فعل ذلك يومها ككلِّ مرة كان يدافع فيه عن نفسه عن طريق الهجوم على مشاعرها. تعجَّب من المكالمة، ولكنه شعر بانتفاضة في نبضات قلبه. نهض من مكانه كأنها أمامه، ويريد أن يعتذر لها ككل مرة. رد بشغف على الاتصال، وكأنَّ روحه رُدَّتْ إليه. ولكنه فوجئ بصوت آخر لا يعرفه، فلم تكن هي زوجته. تعجب، كيف يمنِّيه القدر بما يتمنَّى، ثم يسلبه أمنياته بسرعة هكذا. ولكن سرعان ما تذكر زحام مشاعره وبحثه عن أحد شبابيك أو أبواب السعادة. ولم يكن هناك أجمل من باب زوجته. قرر على الفور أن يترك الباب، ومعه كل الأعذار المحاطة بكل أنواع الورود. فتحت الباب، فاذ بها تفاجأ به وهو يخبئ وجهه وراء الزهور مقدّمًا لها بطاقة بالخط العريض: «سامحيني، فإني أحبك». ابتسمت بدلال، وحملت الزهور بين راحتَيْها، وعلّقت البطاقة على صدرها، ودخلت تتبختر وهو يهرول وراء خطواتها كالطفل البريء.

الْحُبُّ الْمِثَالِيّ

أعداد الحضور كبيرة جِدًّا في بهو الفندق على هامش المسابقة السنوية للاحتفال بالطفل المثالي الذي تنظمه العاصمة ولأول مرة. الحضور مشغولون بالبرنامج، وشغوفون بمعرفة نتيجة المسابقة، وبإعلان اسم الطفل المثالي.

وفي وسط هذا الزحام الشديد، تلاقت عيناه مع مقلتيها الحالمتين. لم يصدق نفسه، وتسمَّرتْ قدماه مكانهما ووقف مبهورًا من تأثير اللحظة. دون أن تدري وقفت غير مصدقة أنه هو بملامحه الجذابة نفسها، تلك التي كما هي لم يغيّرْها الزمن. نسيت للحظات طفلها الذي يمسك بيديها وهو برداء المسابقة الجميل.

تراقصت رموش أعينهما فرحًا من لقاء عفوي بعد فراقٍ مُدَوٍّ شهدت عليه دقات قلبيهما منذ سنوات وسنوات. فراق كتبه القدر، وقرأه الناس غير مصدقين أن حبًّا كهذا لا يغيب إلّا إذا هجرت الشمس الوجود. افترقا رغم ما كان يربطهما من مشاعر لا تعترف أبدًا بالفراق.

وكما كان الفراق مدويًّا، كان اللقاء العفوي في هذه اللحظة أيضًا مدويًّا. لحظة قدرية غَرِقَا فيها في بحر الذكريات الهائجة التي نقشت لها وشمًا بين أضلعهما.

هو لم يشعر بنفسه إلّا ويد طفلته تناشده أن يسرع الخطى حتى يلحقا بآخر فقرة في الحفل الراقص للأطفال.

هي لم تشعر بنفسها إلَّا وصوت طفلها يناديها بأن فقرته هي القادمة.

اهتز قلبه من الفرحة عندما نظر إلى خنصرها، ولم يجد تلك الدائرة الذهبية التي تسكت المشاعر.

رقص قلبها من الفرحة عندما نظرت إلى خنصره، ولم تجد ذلك الرمز الذهبي الذي تقف أمامه المشاعر وتتجمد.

أمسك بيديها، وسلمت هي خنصرها لخنصره، ومشيا مع طفليهما ليعتليا خشبة المسرح، ومقدم الحفل يعلن عن أسماء الطفل والطفلة الفائزين في المسابقة، وقد كانا طفليهما.

عنْدَمَا يُبْعَثُ الحُبُّ

عاشت عمرها الذي تعدَّى الأربعين في حالة من الانتظار لفارس أحلامها ولمن سيفوز بقلبها. تراكم انتظار الحب في قلبها، حتى كاد يذوب شوقًا من صهد المشاعر التي تتصاعد دون أن يطفئها قلب حبيب يدرك كيف يراقص سُمُوَّ هذه المشاعر. وتحت ضغط توسّلات الأم كادت أن تفقدَ الأمل، وكادت أن توافق على أيٍّ من الفرسان الذين دقوا الباب أيًّا كانت اليد الطارقة. تجدد الأمل لديها عندما جاء لخطبتها هذا الشاب الذي رأت ملامحَه في عينيها، وملامحَها في عينيه. تعجبت كيف تتولد اللحظة بكل هذه البساطة، وبعد كل هذا العمر، وبعد كل هذا الانتظار المر.

تعجبت، لماذا رأته الآن، ولماذا هنا في هذا المكان وهي التي كادت تغلق وتردُّ الباب على قلبها، وتغلق نوافذ حجراته وللأبد. نظرت إليه، وأرسلت مع كل نظرة الآلاف من دقات قلبها الراقص، وهمسات من خلاصة شذا ورود الحب التي تجري في عروقها كنسائم الليل.

وقفت تنظر إليه ولا تدري ماذا تفعل، أتخبره بحبها؟ أم تكتفي بمشاعر

الحب داخل قلبها؟ وأخيرًا استجمعت قوى حبها، وحلّتْ عقدة من لسانها، وأخبرته بهمسة من صوتها أنها تحبه، بل تعشقه، هو الحب الذي وُلِدَ شابًّا في قلبها، وأنه الحبيبُ المنتظر طَوال عمُرها. ألقت الكلمات مع أنفاسها المتعطشة في خجل، وعلى عجل كادت أن تهرب من أمامه إلى نفسها؛ لتخفي الاعتراف له بحبها. نظر إليها نظرة تقطر حبًّا وقربًا، وأمسك بكفيها قبل أن تهرب من بين يديه وهو الذي لا يزال يغوص في البحر الساكن في عينيها. كم تمنى أن يسكن أعماق هذا البحر! منذ الوهلة الأولي التي وقعت فيها عيناه على عينيها منذ شهرين صدفة في ندوة عن المواطنة حينما كانت تتحدث فيها كالوطن الذي يزرع أرضه بالحب. ومنذ تلك اللحظة وهو يشعر بأنها موطنه، وظل يبحث عنها، ويتحسس خطاها في كل مكان حتى كانت لحظة اليوم. قرأ الحب في عينيها دون أن تكتبه، فاحتضن الأرض بركبتيه، ورفع يديه ليعانق يديها قبل أن ينشد أبيات العشق في قصة حبه الغائب، القصة التي اعتاد أن يردِّدَها، ويغنيها كل مساء. تساقطت من مقلتيها دموع فرحة لم تستطع أن توقفها. نهض كالفارس، وقبّل دمعاتها، واحتضن أنفاسها حتى آخر العمر.

أمنيةٌ واحدة وحلمٌ واحد

لم تمنعه إخفاقاتُه المتكررة - رغم عنائه وإخلاصِه لكل القيم والأمنيات- أن يظل يحلم بها مع السعي الدؤوب لتحقيق أحلامه. ومع الوقت زاد شغفه لتحقيق أحلامه وأمنياته التي ما زال الكثير منها عصيًّا على التحقّق.

ولمَّا عزَّتْ عليه الأحلام، قرر أن يجمعها في حقيبة الأمنيات، ويربط عليها بإحكام، ويحملها على كتفيه ويرحل بها إلى زمان آخرَ، ومكان آخرَ لعلها تتجدَّد وتنمو، وتنبت، وتزهر في أرض أخرى. حمل حقيبة الأمنيات بعِزَّةٍ على كتفيه، ومشى، والآمال تسكن عينيه. راح يخطط، ويمنِّي نفسه بتحقيق أحلامه، ولكنه نَسِيَ أيضًا أن هناك من كان يعبث في جُعبةِ أحلامه وهو لا يدري. وعندما وصل إلى منتهاه، وحطَّ راحلته في نهاية الطريق اكتشف أن حقيبة أمنياته مثقوبة، وقد تسرّبتْ منها بعض أحلامه بعد أن ثقبتها الأيدي العابثة!

لَمْلَمَ شَتَاتَ نفسه وأحلامه، واحتضن حقيبته وما بَقِيَ بها، ورفع بصره إلى السماء، وابتسم مقرِّرًا أن يزرع الأرض تحت قدميه، وينسى ما فاته من بعض أمنياته وأحلامه.

شمَّرَ عن ساعديه، وعن رأسه، وسعى لتحقيق ما بَقِيَ منها بكلِّ ما أوتِيَ من فكْرٍ وقوة، وكله ثقة في أن الله لن يضيعه، ولو بقيت أمنية واحدة، وحلم واحد.

عَوْدَةُ النَّفْسِ

بعد عناء عمل يوم طويل مليء بالمقابلات والاجتماعات، والقرارات القاسية، ترك مكتبه عائدًا إلى بيته، متأبّطًا حصاد اليوم الطويل، ولا يدري ما هو بفاعل، فهو لا يستطيع أن يبدأ النصف الثاني من اليوم بمعزل عن أحداث نصفه الأول. ألقى برأسه على مقعد السيارة، وأغمض عينيه محاولًا الهروب من كل الأحداث؛ لعلّه يهنأ بهدوء عقله، ولو لبضع دقائق. انطلق سائقه الخاص بالسيارة وسط المدينة في رحلة العودة اليومية إلى المنزل. لم يستطع أن يخلد لنعاس مصطنع، ورنين الهاتف لا ينقطع من كثرة الاتصالات بأمور العمل. قرر أن يغلق الهاتف تمامًا، وينسى كلّ ما حوله إلّا نفسَه. نظر من نافذة السيارة لعله يغوص بعينيه وسط الناس، ويلقي قلقه ومخاوفه على أرصفة الشارع؛ لعل الناس يدوسونها بأقدامهم، أو تدهسها عجلات السيارات، فتقضي عليها! ووسط هذه المشاعر فوجئ بالسائق يفتح له الباب، فقد وصلت السيارة أمام المنزل. ابتسم في نفسه، وابتسم للسائق الذي لم يَدَعْ له الفرصة لأنْ يلقيَ قلقَه ومخاوفَه في الشارع.

وبابتسامة جاهزة، فتح له عامل المصعد الباب بترحابٍ وانحناءٍ واحترامٍ، ولكنه -ورغم إجهاده، ولهفته أن يلقي بجسده على السرير ليرتاح- قرر ولأول مرة منذ عدة شهور أن يصعد السلم؛ لعله يلقي بهمومه وقلقه على درجاته، ويرتاح منها. ووسط صوت زوجته والأولاد، ألقى السلام واستلّ نفسه من وسط صخب وضجيج الأسره ليكافئ نفسه «بحمام» بارد. والماء ينساب على جسده المرهق، تمنى لو تتاح له فرصة من سلام الروح مع نفسه التي لم يقابلها منذ سنوات، ومع أسرته التي هجر اجتماعها المقدس كل مساء. كم أشتاق إلى هذه الأوقات البسيطة! تلك التي كانت لي سر الحياة. ولكن هيهات أن تعود تلك اللحظات وأنا من أنا الآن. ظل يحدث نفسه مستسلمًا للمياه الدافئة؛ لعلها تذيب القلق الساكن في صدره ليل نهار.

قصد غرفته ليخلو إلى نفسه ولو لدقائق معدودة يستعيد فيها نفسه قبل أن يحتال عليه نوم متقطع استعدادًا ليوم عمل جديد مليء بالأعمال المهمة والقرارات الكبري التي تتناسب مع منصبه الكبير.

أخذ يقلب في الرسائل المهمَّة التي لم يَرَها منذ عودته إلى المنزل. فوجئ برسالة من شخصية مهمَّة جِدًّا، فتوقف عندها على الفور ليقرأ فحواها، فمؤكد هناك خبر مهمٌّ؛ ولعله الخبر

الـذي كان ينتظـره منـذ شهـر كامـل عـلى أحَـرِّ مـن الجمـر، خـبر يعـلم أنـه سـوف يزيـد مـن أعبائـه عـلى حسـاب سـعادة أسرتـه. ظـل قلبـه يخفـق لثـوانٍ مـرَّتْ عليـه كالدهـر، قبـل أن يفتـح الرسـالة ويقرأهـا. أخـيرًا فتـح الرسـالة، ومـا أن قرأهـا حـتى هجـر النـوم عينيـه. فقـد تمـت إحالتـه إلى المعـاش المبكـر. لم يصـدق نفسـه أن الأسـباب سـوف تنقطـع عنـه، رغم أنـه كان يشـتكي كل يـوم أنهـا تجعـل مـن عقـله ألـف عقـل، ومـن قلبـه ألـف قلـب. حـزن حـزنًا شـديدًا عـلى ضيـاع الأسـباب، رغم أنـه كان منـذ دقائـق يتمنَّى، ولـو لحظـات قليـلة يخلـو فيهـا إلى نفسـه وعائلتـه. توقفت ملامحه عـن العمـل، وملأهـا الحـزن، ووقـف أمـام المـرآة يبحـث عـن نفسـه. وهـو في هـذا الموقـف الحـزين دخلـت عليـه زوجتـه، فوجدتـه عـلى هـذا الحـال رغم أنهـا كانـت تتوقـع خلـوده للنـوم ككل يـوم. سـألته: مـا بـك حبيـبي؟ مـاذا يشـغل بالـك؟ هـل هنـاك أَمـر مهـمٌّ في العمـل يقلقـك؟ ردّ في وهـن وانكسـار: لقـد أحالـوني إلى المعـاش المبكـر. ابتسـمت زوجتـه في هَنَـاء بالـغ، وضمّتـه إلى صدرهـا هامسـة في أذنـه: الآن عـدت لي بعـد كل هـذا الغيـاب، أهـلًا بـك مرة أخري، وعوداً حميداً، وكفى بك غربة حبيبي.

ألـقى رأسـه في صدرهـا كالطفـل، واستسـلم لنوبـة نـوم عميقـة لم يهنأ بها منذ سنوات.

الْبَحْثُ عَنْ أمْنِيَة

بعد انتهاء يوم عمل طويل وشاقّ، ألقت حقيبتها التي تحوي أسرارها المتنقلة، وطموحاتها الكامنة على كرسِيِّها الهزَّاز المفضَّل في غرفتها. ألقت بجسدها المتعب على السرير؛ لتستجمع قواها قبل أن تبدأ فترة العمل الثانية في البيت. وما أن ألقت بجسدها على السرير حتى هدأت خلاياها المشتعلة، وبدأت علامات الراحة تدبُّ في أركان الجسد المنهك من زحمة وثرثرة ألسنة العمل. ولكن لم يهدأ عقلها، وأبى أن يستريح، وظلت عيناها معلقتان على نقطة لا تراها بسقف الغرفة، ولكنها ترى فيها كل طموحاتها، وآمالها متدلِّيةً منها مع أشعة لمبات النجفة العتيقة في سقف الغرفة.

ارتاح جسدها، ولكن هاج عقلها، وودّت لو يهدأ -ولو لسويعات- ترتاح فيها من ألم الفكر المستمر. ولكن فكرها أبى أن يهدأ، وظل ملتهبًا بثرثرته، وبكلّ عناد. تعجَّبت من عناد عقلها مع أن أفكاره هذا المساء هي أفكار كل مساء، فلماذا الآن يأبى الهدوء؟ فكرت كثيرًا فيما يُلهب عقلها، وتذكرت شيئًا دائمًا ما يلهبه. وهنا نهضت تبحث عن شيء تخفيه بين طيَّات الكتب في مكتبتها الصغيرة. أمسكت بالنوتة الحمراء التي تسجل فيها طموحاتها منذ عيد ميلادها الحادي والعشرينِ، وتخرّجها في الجامعة.

مـرَّتْ عـشرة أعـوام الآن، وهي تسـجل كل عـام أمنيـة جديـدة في تلـك النوتـة دون أن تتحقـق أيٌّ مـن أمنياتهـا القديمـة، فتصـاب تارة بخيبـة الأمـل، وتارة أخـرى بتجديـد الطمـوح. نظـرت بغيـظ، وسخريـة، وتعجُّـب في قائمـة الأمنيـات الطويـلة الـتي وصلـت إلى عـشرِ أمنيـات كبـار، والـتي لم يتحقـق منهـا شيءٌ يذكـر سـوى أمنيـة واحـدة، تلـك الـتي تهتّكـت عـلى قضبـان الزمن الذي يجري عليه قطار العمر بلا توقف.

وقفـت حـائرةً أمـام هـذه القائمـة، وهي لا تـدري مـاذا تفعـل بهـا. هـل تمزقهـا وتتخلـص منهـا، وتعيـش حياتهـا حـرة بـلا قيـود الأمنيـات، أم تضيـف إليهـا أمنيـة جديـدة ليتجـدَّد الأمـل. وبعقلهـا الملتهـب الـذي كاد يحـرق أفكارهـا وتطلعاتهـا لتحقيـق ولـو أمنية واحـدة، قـررت ألَّا تمزقهـا، وأن تتركهـا تَـذْكارًا لزمـن الطموحـات. قـررت أن تضيـف إليهـا أمنيـة جديـدة وهي تحقيـق قائمـة الأمنيـات دفعـة واحـدة في وقـت مـا، وفي مـكان مـا، ومـع شخـص مـا.

ابتسمت في نفسها، وسخرت من قلمها وهي تمسك بيديها المرتعشتين القائمـة لتكتـب أمنيتهـا الجديـدة ودموعهـا تسـيل عـلى خديهـا بـلا اسـتئذان مـن إحسـاس الـلَّا أمـل الـذي بـدأ يتـسرب اليهـا.

ومـا أن همـت بوضـع القائمـة في مكانهـا مـرة أخـرى، حـتى غـيرت رأيها بألَّا تفعل كما تعودت منذ عشِرة أعوام.

خرجـت مـن بيتهـا مسرعـة وهي ممسـكة بقائمـة الأمنيـات باحثـةً

عن أقرب مكان يصنع إطارًا لها... إطارًا مُحلّى بالذهب.. إطارًا بألوان مُبْهجة حتى تكون ذكريات أمنياتها مفرحة بعد أن فقدت الأمل في تحقيقها. شعرت بحالة من النشوة، وهي تهرول في الشارع على قدميها، شعرت بفخر وهي تحمل أمنياتها معها في كل مكان؛ بدلًا من انطوائها هناك بين الكتب. وتحت تأثير نشوة فرحتها بقرارها، زادت من عَدْوِها ولم تدرِ بنفسها إلّا وهي تحت عجلات سيارة وقفت بمعجزة في اللحظات الأخيرة قبل أن تدوس عليها وعلى أمنياتها! خرج الرجل الوقور من سيارته التي تعكس حالة الثراء التي يتمتع بها، فوجدها ممدَّدة على الأرض، وفي قبضة يدها ورقة مطوية. فتح الورقة عساه يعرف من هي. بعد أن تأكد له أنها بخير، وما هو إلّا مجرد اصطدام بسيط، فتح الورقة ليجد عنوانها: «**قائمة أمنياتي لعلها تتحقق**».

قرأ قائمة الأمنيات بابتسامة هادئة، وواثقة عندما وقعت عينه على أول القائمة.

سألها: لماذا تحملين قائمة الأمنيات في يديك.

ردَّتْ بجسد منهكٍ، وعقل ما زال ملتهبًا: اليوم فقط قررت أن أصنع لها إطارًا جميلًا يحميها؛ كي أعلقها على جدار الذكريات. زادت ابتسامته حتى لمعت عيناه، وحملها إلى سيارته إلي المشفى الذي يمتلكه في أطراف المدينة لتبدأ هناك تحقيق أولى الأمنيات في القائمة.

غَيْبُوبَةُ مَشَاعِرِ

أدرك أن الوقت قد تغلّب على المكان، فصبغه بلون الماضي الذي دائمًا ما يلوّنه بالأزرق، عكس الرمادي الذي يلوّن به الحاضر، والأبيض الناصع الذي يجمّل به المستقبل. تمنّى لو أن هناك زمنًا آخرَ؛ كي يصبغه باللون البرتقالي المفضل لديه، زمنًا لا يعترف بالماضي والحاضر ويتعدى المستقبل.

تنحّى جانبًا، وأخذ مكانه من غرفته المفضلة في منزله. تحسَّس المكان، واستنشق الزمان، وأخرج زفيرًا طويلا من أعماق رأسه وقدميه حتى رئتيه، ففوجئ بتيار هواء زفيره يسقط على حائط غرفته الرمادي فيلوِّنه بلون أبيض ناصع بلون المستقبل. تعجب، كيف له أن يستنشق الحاضر، فيخرج من أعماقه المستقبل؟!

نظر إلى الحائط طويلًا وبعمق مستمتعًا بهذا اللون الرائع الذي يضفي عليه سكينة وراحة وطمأنينة طالما ينشدها وقت الخَلوة لنفسه. وعيناه معلقتان ومتفحصتان للون مستقبله الأبيض على الجدار، فوجئ بيد كطيف خيال قادمة من الأفق ترسو على الحائط، وتصوغه بلون برتقالي لم يره من قبلُ.

تعجب من أين أتت هذه اليد الرائعة؟! ومن أين لها بهذه الصبغة البرتقالية الرائعة؟ وكيف أدركت تلك اليد مدي تعلقه بهذا اللون لزمن رابع يتمنّاه ليصبغ به حياته التي تتأرجح بين ماض أزرق قاس، وحاضر اختلطت به الألوان، ولا يدري من هو في هذا الخليط ومستقبل لا يعلم عنه شيئًا، رغم أنه كم تمنّاه ناصع البياض! يا ترى، لمن هذه اليد التي حلّتْ عليه هذا المساء؟ حتى تهديه هذا الزمن الرابع ليعيش فيه كل الأمكنة التي تعشقها محبوبته، ويتنفس فيه كل المعاني الدافئة التي تحيا عليها حبيبته. زمن رابع لا يعرف الأعراف، ولا الأصوليات، ولا القوانين، ولا الفروقات. زمن لا يعترف إلَّا بنبضات القلوب المحبة، زمن هواؤه حب، ومياهه عشق، وأرضه شجن، وسماؤه هيام. زمن تتحدث فيه القلوب ولا تكتفي بالنبض. زمن تكتب فيه العقول قصائدها، وترسم لوحاتها ولا تكتفي بالفكر. زمن أيامه كلُّها فرح ولا تعرف، ولا تعترف بالحزن.

نهض من مكانه صوب هذه اليد التي تبتسم له تارة، وتضحك تارة أخرى، وتقترب تارة، وتبعد تارة أخرى. يد يتبدل الجمال فيها بالحسن، يد ترتدي حريرًا من سندس تضيء كأنها البدر. وقبل أن يزداد تعجبه وتزداد همهماته وتساؤلاته عن هذا السحر في صورة يد، ظهر وجه حبيبته التي غابت عنه وغاب عنها، وفرق بينهما الماضي والحاضر، ومرّ أحداث الدهر. ظهر له وجه حبيبته في كف اليد.

لم يصدق نفسه، ولم يصدق اللحظة، وجرى مهرولًا نحو وجه حبيبته متخبّطًا في أرض وأثاث الغرفة محاولًا أن يتلمّسها ويتحسسها بعد أن فرق بينهما الزمن بلا ذنب. الآن أدرك أن الزمن الرابع قد خُلِقَ خصّيصًا له ولحبيبته التي غيّبها الزمن عنه. جرى نحوها ولهفة الحياة تسبقه بعد أن هجرته. وكلما اقترب من وجه حبيبته ازداد تحوّل وجهها إلى هيئتها الكاملة، فيزداد فرحه وحبا للحياة.

وما أن لمس وجهها وصدرها وشفتيها حتى شعر بقشعريرة تهز شفتيه، ورجفة تهز جبينه، ويد تهدهد خديه. وما أن وصل إليها بعد عناء، وقبل أن تمتد يده ليحتضن كفيها، شعر بيد الطبيب التي تطبطب عليه وتهدّئ من روعه، بعد أن فقد الوعي من جرّاء حادثة كادت تودي بحياته؛ بسبب فكره دائمِ الانشغال بحبيبته التي فرَّق بينهما الزمن. استيقظ علي صوت الطبيب «حمدًا لله على السلامة من غيبوبة واضح أنها أخذتك لزمن آخر غير الزمن... لقد كتب الله لك عمرًا جديدًا.»

ردّ وعيناه ما زالتا معلقتين على جدار غرفة العناية المركّزة البرتقالي «نعم: لقد كانت أحلى وأجمل غيبوبة وليتها تعود مرات ومرات لأعيش فيها، وأحيا طوال العمر.»

وفور تماثله للشفاء، كان أول قرار يأخذه بشغف هو طلاء كل جدران منزله باللون البرتقالي لعله يقابل حبيبته في أول غيبوبة.

الْمَوْتُ جَوًّا

في هذا الفجر الهادئ من اليوم الربيعي الرائع تبدو حركة التنقل في المطار سائرة كما يراد لها بسلاسة وسهولة.

جلست أتفحَّص في وجوه الركاب المتوجِّهين إلى بيوتهم عائدين من العاصمة إلى بلادهم. ركبنا الطائرة أيضًا بسلاسة وهدوء، والكل يمنِّي نفسه بسلامة الوصول إلى وجهته.

أقلعت الطائرة «البوينج» على الخطوط الفرنسية متجهةً إلى باريس كالفارس الواثق من نفسه. أخذت طريقها في السماء تتحدَّى السحاب، وتشق طبقات الهواء، ونحن بين مشاهد للتلفاز، أو نائمٍ، أو متحدثٍ لزميله بعد أن استمتع الجميع بوجبة خفيفة.

مرت ثلاثُ ساعات ونحن محلّقون في الجو، ولم يبقَ إلا ساعة لنصل إلى باريس ليتوجه كل منا إلى المدينة، أو إلى «الترانزيت» لينتقل إلى بلد آخر.

فجأة، انسكب كوب الشاي من يد تلك السيدة التي تبدو في نهاية عقدها الخمسين. وانسكبت القهوة أيضًا على قدم أحد المسافرين.. ذلك الجالس على المقعد بجوارها.

وفي تطور سريع وقعت السيدة من على مقعدها لترتطم بأرض الطائرة،

ونحـن عـلى ارتفـاع أكـثر مـن عـشرة آلاف قـدم مـن سـطح الأرض. سـارعت ابنتهـا الـتي تبـدو في العقـد الثلاثـين لتسـعفها، حيـث كانـت بجوارهـا، ولكنهـا منشـغلة بمشـاهدة فيـلم «أكشـن» على الشاشة المثبتة بمقعد الطائرة.

وما أن وقعـت السـيدة عـلى أرض الطـائرة حـتى أصيبـت بحـالة مـن التشـنج والهياج الشـديد! ثم هدأت رويدًا رويدًا، ثم سكنت، وأصبحت جثـة هامـدة ممدّدة على الأرض! وعلى الفور، جرى طاقم المضيفات نحوها لمعالجـة الأمـر وتوجـه طبيـب مـن الركاب محـاولًا إسعافَها. ولكـن حالتها كانـت تسـتدعي تدخـلًا طبيًّا أكـبر مـن الإسـعافات الأوَّلية عـلى الطائرة.

ذرفـت ابنتهـا الدمـوع، وسرى القلـق بـين الـركاب. وفوجئنـا بقائـد الطـائرة يعلـن أن الطـائرة سـوف تتوجـه إلى مطـار «رومـا»؛ كونـه أقـربَ المطـارات لنـا؛ وذلـك خوفًـا عـلى حيـاة السـيدة، وتطبيقًا لقوانين السفر، وخوفًا من المساءلة.

شـاهدت هـذا الموقـف بقلـق وتوجّـس، وخوفًـا عـلى هـذه السـيدة الـتي أشـفقت عليهـا.. تلـك الـتي لم تعـد تشـعر بأحـد حولهـا، حيـث إنهـا في غيبوبـة.. قيـل لنـا إنهـا لـن تفيـق منهـا قبـل ست سـاعات. أشـفقت أكـثر عـلى ابنتهـا الـتي بـدت حزينـة وقلقـة، ولكنها أيضا بدت متماسكة، وحنونة، ومسئولة.

ولأنّ السيدة كانت ممدّدةً أمام مقعدي، حيث كنت أجلس في المقعد بجوار باب الطائرة.. ذلك الذي يوجد أمامه مساحة كبيرة، فقد شعرت بغصة في قلبي، وحزن عميق عليها.. في غيبوبتها تلك، ونحن على ارتفاع آلاف الأميال من الأرض، وبعيدًا عن الأهل والأقارب والأصدقاء، وبعيدًا عن الإمكانات والمستشفيات.

وبالفعل هبطت الطائرة في مطار «روما» بإيطاليا، وانتقلت السيدة هي وابنتُها إلى عربة الإسعاف، وهي بين الحياة والموت. تغلبت المشاعر الإنسانية على كلِّ المسافرين كما حدث معي خوفًا وشفقة على هذه السيدة وابنتها، وهما في هذا الموقف العصيب والسيدة بين يدي الله.

ووسط هذا القلق الشديد، طلب معظم المسافرين من قائد الطائرة ومن المضيفين والمضيفات الإقلاع، وعدم انتظار السيدة حتى تفيق؛ نظرًا لصعوبة حالتها من ناحية وحرص المسافرين على مواعيدهم من ناحية أخرى. وبالفعل طمأن قائد الطائرة المسافرين بأن الطائرة تنتظر أمرَ الإقلاع وليس عودة السيدة.

وذهبت السيدة ولم تعد، ولكن ظلت الطائرة في مطار «روما» تقريبا لمدة ساعتين تنتظر الإقلاع ونحن على متنها.

وبهذا تأكد للجميع استحالة اللحاق بطائراتهم، وأنه لا بُدَّ من كلٍّ منَّا إعادة الحجز عند الوصول لمطار باريس.

مال عليّ الشاب العشريني الجالس بجواري، والذي لم ينبسْ بكلمة منذ أن رأى السيدة بين الحياة والموت: «تعلمت سيدي من هذا الموقف كم أن الإنسان ضعيف رغم جبروته! وكم هو في حاجة إلى الناس حوله ولو كانوا حفنة قليلة!»، وتعلمت يا سيدي أنه رغم أن العدد على متن الطائرة لا يزيد على المئة، إلّا أن ابنة السيدة شعرت بأمان وهي بيننا بالرغم من أننا كلنا غرباء في الهواء، وتعلمت يا سيدي أنه في وقت الشدة يبحث الإنسان عن إنسان أيًّا كان جنسه ولونه ولغته ليقف بجانبه ويعضده ولو بنظرات الحنان، وتعلمت أيضًا سيدي، أنَّ من يقف بجانبك وأنت معه، سوف ينساك بمجرد أن تبعد عنه! ولكنها الحياة التي يبحث كل منا فيها عن الحياة مع الآخر.» نظرت إليه نظرة عميقة أراقب الدمعات التي تتساقط من مقلتيه، رغم فحولة الشباب التي تزيّنه.

تركته يفضفض، وتساءلت في نفسي:

ماذا لو حدث ذلك لي وأنا بدون رفيق؟

وبسرعة أغمضت عينَيَّ لأنسى الفكرة، وأنام. وكان رفيقي النوم.

مَشَاعِرُ وَسْطَ الطَّرِيق

تربّعت فوق عرش الذكريات، ونادت على الأيام الخوالي. لم تستجِبِ الأيام من مرقدها، وآثرتِ السكون والسكوت، وأمسكت بتلابيب الذكريات، فانهار العرش ولم يعد أمامها سوى بقايا الحاضر الذي لا يوجد له عنوان!

وقفت وسط الطريق لا تدري ماذا تفعل بين ماضٍ راكدٍ نائم، وحاضر يقف على حافة الماضي متخلّيًا عن جنسية الحاضر فيه. نظرت أمامها، وعيناها على شيء ما تتمنَّى أن ينتشلها من هذا الركود الذي كاد يودي بها إلى حفرة الماضي السحيق، وبقايا ثرى الحاضر تحت قدميها.

فتحت ذراعيها لرياح تحمل على أجنحتها أيام المستقبل لعلها تجد فيها ما يهدهد ذكريات ماضيها، وتردد وهوان حاضرها. فتحت ذراعيها عن آخرها، واحتضنت الرياح بما فيها من أيام المستقبل، ولكن كانت الرياح شديدةً وقاسيةً، حملتها عاليًا بغتة، ورمت بها في حفرة الماضي السحيق ككومة من تراب تذروه الرياح! حاولت أن تتمسك بتلابيب من مزيج الماضي والحاضر والمستقبل،

ولكنها شعرت بكومة الأيام أحبال تلتف حول عنقها لكي تستسلم للشنق بخليط أحبال العمر!

تأوّهت واستغاثت، وهي في ظلمة حفرة الزمن، ولكن لم يسمعها أحد، فأغمضت عينيها مستسلمة لنوم؛ لعله يأخذها إلى الآخرة. وفجأة لاح لها من أعلى الحفرة شعاعٌ كالحبل يتدلّى بالنور. تعلقت بنوره محاولة بكل الحيل أن تمسك به؛ لعله يحملها عاليًا من وسط هذه اللُّجَّةِ الزمنِيّة المظلمة. وفي غمضة عين وجدت نفسها في حضن حفيدها، وهو يربت على كتفيها محاولًا إيقاظها من كابوس كل يوم كما تعوّد وعلمته. وما أن أبصرت حفيدها الصبي حتى أطلقت الشهادتين، وارتمت في حضن أنفاسه قبل أن يعطيها دواء الاكتئاب كما تعوّد كلّ مساء. نهضت كي تلقِيَ نظرة على صور أبنائها المعلّقة على جدران غرفتها بلا روح. صلت العشاء، ونامت في حضن حفيدها الذي قرر منذ سنوات ألّا يتركها وحيدة لحفر كوابيس المساء.

مَشَاعِرُ آيِلَةٌ للسُّقُوطِ

بعد عناء يوم طويل من الضبط والربط صال فيه وجال، عاد إلى بيته متناسيًا مظالم النهار التي وقعت بين يديه وعلى يديه. وقبل أن يركن إلى متّكَئِهِ وقف أمام المرآة مخاطبًا نفسه، ومنتشيًا أمام جموع جوارحه، مهمهمًا: «أنا من هبطت نجمة من السماء ببريقها فوق كتفي.»

ازدادت المرآة عمقًا واتّساعًا، وصفقت له جوارحه فزادت نشوة جوارحه وإعجابه بنفسه، وبريق النجوم فوق كتفيه، وزاد في همهمته: «وأنا الذي غارت باقي النجمات من بريق النجوم على كتفي، فاستسلمت وأفسحت لها كتفيّ تتلألأ عليها كما تشاء وتنتشي!

ازدادت نشوة الإعجاب بنفسه عندما نهضت جوارحه مصفقه له، فازدادت همهمته: «وأنا الذي سئمت من بريق النجوم، فسمحت للنسر بأن يهبط بقوته ليستقر على كتفي مهابًا من ألسنة الناس كالسيف». وأنا الذي استدعي نجمة، ثم نجمتين، ثم ثلاثًا من عنان السماء ليتزيّن بها نسري؛ ليصير عنوانًا ورمزًا للحزم والربط. ازدادت كبرياؤه وهو يسمع هتافات جوارحه تنتفض من نشوة

الزينـة والقـوة والنصر. وهنـا شـدّ عـوده، ونفـخ صـدره، وسـال الفخـر حبـات عـرق عـلى جبينـه وهمهـم في جـوف نفسـه وكأنـه يخاطـب العـالم الـذي سـكن حـوله وداخـله: «وأنا الـذي أبدلـت بالنجـوم عـلى كتـفي سـيوفًا قاطعـة متقاطعـة.. دروعًـا للنسر، ورمـزًا للعـزة والقـوة والفخـر.» وقـد امتـلأ بقـوة طارئـة انتفخـت بهـا أوداجـه وشرايينـه وعيونـه وعضـلات صوتـه: «أنا مـلازم للقـوة، وأنا نقيـب الـشرف، أنا رائـد للأمـن، عميـد الحسـب والنسـب، أنا لـواء للنفـوذ الـذي لا يُقهـر. وفجـأة وفي غمـرة نشـوته رن جـرس التليفـون بـلا انقطـاع، أفـاق مـن عنفـوان القـوة الـتي يخاطبهـا عـلى كتفيـه. أمسـك سماعـة التليفـون ليسـمع صـوتًا رسميًّـا هـادئًا قادمًـا مـن الجانـب الآخـر: «نأسـف أن نخـبرك بتقاعـدك ولـك كلُّ الأمنيـات الطيبـة بالتوفيـق لمسـتقبل قـادم». نظـر في المـرآة غـيرَ مصـدق وهـو يشـاهد قوتـه وهي على وشك السقوط أمام عينيه من على كتفيه.

الهُرُوبُ من اليُتْمِ

قبل المغيب ومن تحت نظارته السميكة، وشعره الأسود الكثيف المبعثر، وقميصه الممزّق الذي يشدّه حتى رقبته ليحمِيَه من هذا البرد القارص، أمسك إبراهيم حقيبته القماشية الكالحة ليحمي بها صدره المضطرب متحسسًا أرضية الفناء المبلّلة خشية أن يراه أحد، أو تختلَّ قدماه، فيسقط على الأرض الموحلة. فجأة، وقبل أن يضع رأسه في الفتحة الصغيرة التي صنعتها عوامل التعرية في السور الضخم، شعر إبراهيم بهزة عنيفة في جبهته جعلت عقله الباطن يصرخ ويديه تنفرجان وتترنحان، وصدره يتمزق لتسقط كراسته الوحيدة على الأرض، وتتبعثر فوق أشلاء نظارته. انحنى بظهره، وتحامل على ركبتيه ليلملم أشياءه التي غمرها الوحل والبلل. نهض من تحت سابع أرض يتحسس العمود الذي صدمه. وجد رأسه بين أرجل العملاق البشري نفسه الذي دائمًا يحول بينه وبين الخروج متخفيًا من الدار التي لم يفارقها منذ أن رحل أبواه عن الحياة منذ خمسة أعوام. أمسك إبراهيم بكراسته المبللة، وجرى مسرعًا والخوف يملأ صدره

وقميصـه، وأنفاسـه تتقطـع إربًا ليلـقِيَ بنفسـه في زاويتـه عـلى أرض الحجـرة، فهي صديقـه المخلـص ليلمـلم مـا بَـقِيَ في نفسـه مـن أشـلاء. أغلـق عينيـه عـلى مخاوفـه مـن صـور العقـاب الـذي ينتظـره، والأمل في النجاة لا يزال يخبئه في قلبه ...

مَشَاعِرُ شَهِيدٍ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ!

حمل سهيل ذكريات الأربع سنوات التي قضاها في الجامعة في عقله بمرحها، وعراكها، وحبها، وذكريات الأسرة والأهل والأصدقاء في قلبه بحنانها وأشواقها، واصطفَّ في طابور طويل نهايته هناك في معسكر الاستقبال.

وقف بين زملائه فخورًا بنفسه وتفوّقه الساحق في الجامعة، والمستقبل الكبير الذي ينتظره لتحقيق حلم العمر بأن يكون عالمًا كبيرًا يُشار إليه بالبنان. عرف توزيعه ومهمته، وحمل متاعه، ورحل مع بعض من زملائه مع قائدهم، ورحلوا هناك بعيدًا بين الجبال والهضاب وسط الصحراء. تزيّنوا بقوة في زيٍّ رائحتُه عزةٌ، وكرامة حاضر وماضٍ، ومستقبل الوطن. تبادلوا أدوار الضبط والربط والحماية من الصباح إلى المساء.

تعمَّقتِ الصداقة، وتعمّق الاشتياق للأهل والأصدقاء والمستقبل الذي ينتظر الجميع هناك على أبواب المدن الساهرة. ربض سهيل في خدمته على الحدود المكلّف بها ليلًا كالصقر،

وعيناه في كل مكان، وعلى كل اتجاه. وعلى مقربة منه هناك ربض النسور والصقور والنمور من زملائه بعيونهم الساهرة. وفجأة شهق شهقة الموت، تناثرت حواليه وتحت قدميه أشلاء كل النسور والصقور، ولم يعد منه إلَّا قدم وساق. رحل عن الحياة، ولم يدرِ بنفسه إلَّا والأهل حواليه في بيته يرددون التحية، حمدًا لله على السلامة يا بطلُ، ورحم الله الشهداءَ، فلن يموت الوطنُ أبدًا مهما زاد عدد الشهداء.

الآن تذكر سهيل صوت الانفجار، والأشلاء الحمراء وبكاءه على موت الجنود دون حرب.

حينئذ عادت لسهيل ذكريات الجامعة، والمستقبل الكبير إلى عقله، وترسّخت ذكريات الأهل والأصدقاء في قلبه، واحتضن ذكريات المعسكر بأنفاسه متشبّثًا بالحياة، ولم يستسلم لآهات الألم جرَّاء بتر ساقه وذراعه!

ظل يمسح دموع والده التي تتساقط على وجنتيه بإيقاع يحكي حكاية وطن.

احتضن والده وهدهد من حزنه، وابتسم في وجهه، ثم استأذنه أن يأتي له بأدواته التي اشتراها قبل بدء الخدمة العسكرية منذ ثلاثة أشهر لزوم دراسة الماجستير بعد انتهائه من تأدية الخدمة.

تعجب الوالد من طلب سهيل، ولكن تحت إصراره أحضر كل الأدوات بما فيها الحاسوب المحمول والمراجع.

وضع الحاسوب على قدمه اليسرى المتبقية، وكتب بأنامل يده السليمة عنوان أول بحث: «توظيف الذكاء الاصطناعي لتطوير تركيب ووظيفة الأطراف الصناعية لتعمل بكفاءة الأطراف الطبيعية».

وفي ابتسامة الراضي والواثق من نفسه، قرأ على والده عنوان المشروع العلمي الأول في حياته الأكاديمية والذي قدَّر الله أن يبدأه قبل إنهائه في فترة تأدية الخدمة العسكرية بتسعة أشهر.

احتضنه والده، وأمسك بذراعه السليمة، ورفعها إلي أعلى، ودعا له بالتوفيق في مشروعه المهمّ الذي ينتظر نتائجه كل الأبطال.

فِنْجَانُ الحُبِّ الأَوَّل

بعد أن تناسى جرح الحب الأول الذي نام في صدره واستيقظ في عقله، لم يصدق نفسه والحب الجديد يتبختر قادمًا إليه. لمعت عيناه بالأمل عندما رآها تبتسم له على استحياء وحياء. فملأت وجهه ابتسامة ضاحكة ملأت شفتيه، وتخلل همسها كل خلية في جسده حتى سمع صدى فرحتها في قلبه. لما شاهدت حبّه لها يعلن عن كلّ هذا العرس، ويغني في عينيه، تأبطت ذراعه بكلتا ذراعيها، فشعر وكأن العالم يتدحرج بين يديه.

ابتسم وابتسمت، مالت عليه ومال عليها، نظرت إليه ونظر إليها. شعر كأن حب العذارى تجمع في نظراتها فصارت له أميرة العشق، وهو العاشق الطائر وهي العش. مشت تتبختر بجواره، وقلبها يغرد بسعادة اللحظة. مشى بجوارها يتهادى، ونشوة اللحظة تجعل قدميه تلامس الثري تحت قدميه من شغف هذا اللقاء. وصلا إلى مقهى «عش الأحبة» الذي يعشق احتساء فنجان

قهوته فيه منذ أن افترق عنه حبه الأول.

ودون أن يدري، قادته قدماه إلى الركن البعيد الهادئ نفسه الذي طالما شهد معارك العشق، والخصام، والهجر، والدلال أيام حبه الأول.

جلستْ بجواره في نشوة بجمال اللحظة، وبرومانسية المشاعر التي طلّتْ من عينيه بمجرد أن دخل الكافيه، وجلس بجوارها، وعيناه معلقتان على شيء ما في المكان لا تراه، ولا تعرفه. وما أن أخذ مكانه المعتاد، حتى شعر برعشة تسري في عروقه، ورجفة تهزُّ صدره بعد أن رأى صحوة وصوت صهيل ذكريات حبه الأول تجري على جدران المكان ماثلة أمام عينيه، ولكن لا يراها سواه.

شعر بأن قلبه قد هجر صدره عنوة عنه ليرقص، وينبض على جدران المكان. وهنا أدرك أن قلبه في مظاهرة لصالح حبه الأول. حاول أن يستعيد قلبه إلى صدره لمن تجلس بجواره، ولكن قلبه أبى، وظل يرقص على الجدران بإضاءتها الخافتة.

شعرت بالخدر في ذراعيه وفي نظرات عينيه. وهو ما زال هائمًا على شيء ما على جدران المكان لا تعرفه، سحبت يدها من يده، ونظرت إليه بابتسامة حانية، وطلبت النادل، ودفعت حساب فنجانَيِ القهوة، ورحلت.

تركت له عش الأحِبَّة حتى يفيق من سكرة لا تعرفها، ولكنها شعرت بحدس أنوثتها، أن هذا المكان شَهِدَ حبَّه الأول. المكان الذي بعث ذكريات مشاعره من مرقدها تُجاه حبه الأول الذي طالما حكى لها عنه.

ولما أفاق وجد نفسه وحدَه وأمامه فنجانان من قهوة الحب، فما زال النادل يتذكر قهوته، وقهوة حبه الأول ابتسم وانتشى في نفسه، وغنّى لحبِّه الأول.

ترك فنجان قهوته كما هو، وجري نحو باب حبّه الأول ورفيقة عمره ليعتذر لها؛ لعلها تأتي معه ليرتشفا فنجانَيِ القهوة كما كانا في الماضي القريب.

مَشَاعِرُ الأُمَرَاء

ألقى بجسده المتعب على الحصيرة دون أن يعبأ بالتراب العالق عليهما من أثر العمل في المحجر طوال النهار، وبلا توقف ما عدا ساعة الغذاء التي يلتهم فيها ما يُسكت به صيحات معدته الخاوية، والكثير من الماء البارد الذي يلطف به حرور جوفه الملتهب من حرارة شمس الصيف الحارقة.
أطرق بعينيه إلى سقف الغرفة محدِّقًا في الأشعة الصادرة من لمبة الإضاءة في كلّ الاتجاهات لتنير ظلمة وحدته التي طلبها لنفسه بعد أن كان مجلسه مهبط الوزراء والشعراء، ورجال المال، والأدب، والقضاء.
حدَّق في الأشعة التي يعجب بها كثيرًا، وبقدرتها على ذوبان الظلام، وتلوينه بالضياء بلا ضجة، أو ثورة أو شكوى من احتراق المصباح.
تذكر كيف كانت هذه الأشعة هي السبب في تحويل مجرى حياته من الأمير المنعّم إلى العامل البسيط المُجِدّ الذي لا يكلّ من العمل، ليس فقط ليكسِرَ شوكة الإمارة في قلبه،

ولكن أيضًا ليتذوَّقَ طعم العمل الذي طالما قرأ عنه في القصص والروايات دون أن يتعرف عليه على أرض الواقع. تذكر كم ألهمه هذا الضياء الصادر من المصباح! أن يترك مجالس الأمراء، ويسيح في الأرض للعمل بين بسطاء الحياة. يتعلم منهم، ويتعلمون منه كيف تكون الحياة على الأرض. شتّان بين ضياء مصباحه هذا، وبستان المصابيح الكهربائية من كل شكل ولون، تلك التي كانت تزيِّن غرفته أينما حلَّ، وأينما ذهب في قصر الإمَّارة الذي بناه له والده على شكل شمس تُشِعُّ ضياءها في كل جوانب المدينة على هيئة بيوت الرعايا حول قصره الذي لا ينطفئ نوره ليل نهار.

تذكر كيف كان ينظر إلى أشعة مصابيح قصره كلما نظر إلى سقف غرفته ليتفكر في أمر ما، فلا تلفت انتباهه ولا تأخذه عمَّا يفكر فيه. ولكنه تذكر جيّدًا هذا اليوم الذي خطفت هذه الأشعة انتباهه فجأة بعد أن انطفأت وسط الليل، ولم يكن بجواره أحد يؤنسه، فانتابه فزع روَّعَهُ وملأ قلبه في لحظات قليلة حتى هُرِعَ إليه الخُدَّام والحرَّاس ليضيئوا له المشاعل حتى يتم إصلاح العطب غير المتوقع نتيجة لسيول المطر التي هاجمت المدينة ودمّرت على غفلة الكثير من البيوت الضعيفة المَبْنِيَّة من الطوب اللَّبِن.

كان يومًا عصيبًا تحوَّل مرة من أمير مسالم إلى أسد يزأر ومرة أخرى إلى قطة تموء، والخدَّام لا يعرفون ماذا يفعلون في تصرفاته المتقلبة تلك، وهو ينظر في أشعة المصابيح متنقّلًا ببصره من واحد تِلْوَ الآخر ومحدثًا نفسه بصوتٍ عالٍ: كيف تفعلين به هذا أيتها المصابيح بأشعتك التي تقطع وتمزق عقلي الآن كسيوف نصلها ماض.

ولم يرتَحِ الجميع إلَّا بعد أن ذهبوا عنه تنفيذًا لأوامره بأن يتركوه مع نفسه، ومع تلك المصابيح.

كم كان يومًا عصيبًا تعلَّم فيه من تلك الأشعة حياة أخرى ومشاعر أخرى، وعالمًا آخرَ اسمه الظلام الدامس القادر على بث الخوف والرعب في قلوب الأمراء.

تذكر، كم شعر ساعتها بأنه ليس أميرًا حقيقيًّا؟

بل مجرد اسم لا يعرف من حقوق الإمارة شيئًا.

ابتسم في نفسه متذكّرًا أحداث الحلم الجميل الذي عاش أحداثه بعد أن خَرَّ على سريره مغشِيًّا عليه من الإعياء من طول النظر في مصابيح غرفته.

وراسه مُلْقَى على الأرض بغبارها، وقدماه على الجدار.. ترك لعينيه العنان في استرجاع أحداث هذا الحلم الرائع

الـذي دارت أحداثـه في سـفينة في عـرض بحـر هـائج تلاطمهـا الأمـواج العاليـة مـن كل اتجـاه، والنـاس دخلـوا في حـالة رعـب وخـوف وهلـع شـديد مـن غـرق السـفينة وابتلاعهـا بجبـال الميـاه القارصة البرودة دون أن يشعر بهم أحد.

وبالفعـل هُـرِعَ النـاس إلى سـطح السـفينة في هـرج ومـرج طالبـين النجـاة والغـوث ومعهـم الـرّبَّان، ولكـن بـلا فائـدة. ووسـط اندفـاع الجمـوع وجـد نفسـه ودون أن يـدري فـوق ربـوة عاليـة ينـادي في النـاس بصـوت منخفـض، خاصـة أنهـم أنصتـوا إليـه مـع أن صوتـه كان غـير مسـموعٍ، ولم ينصتـوا إلى الأبـواق الأخـرى الـتي تنادي من كل مكان بالتزام الهدوء والنظام.

تعجّـب أكـثر، عندمـا وجـد نفسـه- وأيضًـا دون أن يـدري- متوجّهـا نحـو كابينـة قيـادة السـفينة، وكأنـه مأمـور، ولا يعـرف مـن أمـره وحـوله ربّان السـفينة ومعاونـوه ليفاجـأ الجميـع بهـدوء البحـر بمجـرد أن بـدأ في إدارة لوحـة التحـكم وكأنـه وُلِـدَ قبطـانًا. وفي اللحظـة نفسهـا الـتي هـدأ فيهـا البحـر، هـدأ النـاس، وسـطعت الشـمس، واحتفـل النـاس بفرحـة النجـاة، وهلّلـوا وكـبَّروا، ورقصـوا، وغنّـوا وأخـذوه مـن يديـه إلى سـطح السـفينة ليحملـوه عـلى الأعنـاق، وهو غير مصدق لما يحدث.

وتذكّـر تلـك اللحظـة الخالـدة الـتي لـن ينسـاها في هـذا الحـلم والـتي يتمـنى أن يعيشـها ولـو في حـلم آخـر ليحتـسي حـلاوة المشـاعر الـتي عاشـها كالدهـر.. في تلـك اللحظـة الـتي وجـد يديـه حـول كفـين مـن حـرير همـا لحوريـة سـكنها الجمـال والحسـن في كل مـكان، في عينيهـا وشـفتيها ووجنتيهـا وكفيهـا وأناملهـا الرقيقـة. كادت يـداه أن تـذوبا في كفيهـا وهي تضغـط عليهمـا بحنـان.. سـاعتها وقـف له قلبه يعلن عدم قدرته على تحمّل كل هذا الحسن.

انقلبـت ابتسـامته إلى امتعـاض عندمـا تذكـر أن هذه اللحظـة هي نهاية الحـلم الـذي كم تمـنى أن يكمـله حـتى نهايتـه ليتنعّـم في جمـال وحُسْـن، وحـلاوة تلك الفتـاه، وحنـان كفيهـا وليعرف مـن تكون، ومـن أين أتت، وكيـف له أن يعـبِّرَ عـن إعجابـه الـلّا متنـاهي بهـذا الحسـن الـذي مؤكـد أنـه كان السـبب في هيجـان وهـدوء البحـر بـين انقلابهـا ورضاهـا عـن النظـر إلى موجـه. كم تمنى أن يكـون هـذا الحـلم هـو الواقـع، هـو الحيـاة الـتي يعيشـها بـلا إمـارة، وبـلا خُـدّام، أو حـرّاس أو آلاف المصابيـح! كم تمنى أن يري مثـل تلـك الفتـاة، ولـو صدفـة هنـا أو هنـاك. في قصره، أو بـين خدمـه، أو في شـارع، أو حـارة في مدينتـه وإمارتـه. فقـط لتكـون أميرتـه، ويكـون خفيرهـا، فقـط ليعـترف لهـا بحبـه لنظراتهـا وعشـقه لملمـس حنـان كفيهـا وجنونـه بـدفء أنفاسـها الـتي هي شهيـق كل المحبين.

تذكر وتذكر دون أن يعي أن عينيه ما زالتا تحدقان في سقف الحجرة وهما معلقتان على أشعة المصباح الوحيد الذي يتوسط غرفته، فلم يشعر إلّا وعيناه زائغتين من شدة ضوء المصباح، فأغمضهما غصبًا عنه بفعل الإجهاد.

ترك النوم يتلاعب بهما يمينًا وشمالًا حتى سكنت العينان تمامًا في لحظات، وهبطت قدماه من على الحائط، ومال رأسه المتعب على الأرض، وسقطت يداه بجوار صدره، ووسطه تناجي الراحة الأبدية. علت وهبطت أنفاسه في صدره بهدوء وسكينة وابتسامة واسعة تملأ شفتيه، وروحه معلقة في شوق إلى نهار يوم جديد قد لا يأتي.

صَرْخَةُ مَشَاعِر

وقف وسط الشارع يتنقل بعينيه المحدّقتيْن بين الأبراج السكنية الشاهقة، ونوافذها المُغلقة، وبين المحلات التجارية الفارغة والأرصفة الصامتة.

ظل يُحدِّق غير مصدق لهذا الصمت الرهيب الذي يلف المكان بملاءة السكون والعُزلة، رغم أن كل شيء يبدو في عينيه نظيفًا ومنمّقًا ومنظّمًا. تعجب، هل قبضت السماء على كل أهل الحي، ولم تترك سوي الصمت والسكون ومعهم هو، الذي نَسي أين كان منذ دقائق قليلة.

وقبل أن يتذكر أين كان، وقبل أن يفيق من التعجب ومن الصمت والسكون، فوجئ بالأبراج السكنية تهتز وتترنّح بقوة من زحمة سكانها الذين خرجوا يطلون من شرفاتها ونوافذها، وهمسهم يهزّ الهواء الذي يتنفسه برائحة حديثهم وعرقهم. نظر إلى الأرض، ففوجئ بالمحلات التجارية مكتظة بالناس صغيرهم وكبيرهم، وكأن اليوم هو يوم الشراء والزحام العالمي. نظر على الأرصفة، فإذ بنظرات عينيه تغوص في أقدام الناس

وزحمة نعالهم ضاربة الأرض في كل صوب واتجاه بلا شفقة أو رحمة. وقبل أن يفيق من صدمة الزحام والصخب المفاجئ، تحول الزمان والمكان حوله فجأة إلى نوبة جديدة من الصمت والسكون، كما كان عليه منذ لحظات. وقبل أن يفيق من هَوْل صدمة نوبة السكون والصمت الثانية، تحوَّل العالم حوله مرة واحدة إلى نوبة الزحام والصخب الرهيب الذي يهز كل خلية في جسده هزًّا عنيفًا. ظل هكذا، بين مدٍّ من نوبات الصمت والسكون، وجذر من نوبات الصخب والزحام، وكأنه يُبحر بقارب متهالك يترنَّح بين مد وجزر في بحر لُجِّيّ.

كاد أن يُجن ويفقد عقله وبصره وبصيرته، فكيف يحدث له هذا بين لحظة وأخرى؟ كيف لعقله أن يتحمل كل هذا التناقض بين السكون، والصمت، والزحام، والصخب؟ هل مات وبُعث، والآن يمرُّ على الصراط. هل اختلَّ عقله وأصبحت خلاياه ممزقة؟ هل يشاهد فيلمًا على شاشة بعرض الشارع الذي يعيش فيه بأحداث هي مزيج من الدراما و«الأكشن» والخيال العلمي؟ لا يدري. هل هو الشخص نفسه الذي كان ينام منذ دقائق قليلة في سريره منعّمًا مطمئِنًّا، لا يدري. هل سكنه عفريتٌ من الجن يكرهه كل هذا الكره الشديد، وأراد أن يعذبه؟ لا يدري.

كيف يحدث هذا التقلب، وهذا التناقض في غمضة عين؟ كيف له ألّا يجد أحدًا سواه يشعر معه بهذا العالم المتقلب حوله؟ ثم إنه كيف لا يرى وسط الزحام والصخب أحدًا من أهله أو أصدقائه أو حتى معارفه، وكأنه في مكان آخر غير المكان الذي يعيش فيه، أو كأن الزمان غير الزمان، والمكان غير المكان، أو كأنه وُلِدَ غريبًا، وعاش غريبًا. كاد أن يفقد عقله.

صرخ في نوبة الزحام والصخب، فلم يسمعه أو ينتبه إليه أحد. صرخ في نوبة الصمت والسكون، فلم يحرك صامتًا ولا ساكنًا. ظلّ يصرخ ويصرخ حتى فقد القدرة على الصراخ، وحتى استسلم لعينيه وهي تتنقل كالروبوت بين نوبات الصمت وسكون الناس والأشياء ونوبات من الزحام وصخب الناس والأشياء. حاول أن يغلق عينيه وأذنيه حتى يتخلَّص من هذه الفوضى، ويعيش في نفسه فقط، ولكنه لم يتمكن حتى من غلق عينيه ولا سدّ أذنيه. تحوّلت اللحظة التي يعيشها الآن كأسياخ الحديد التي تحرق عقله وقلبه بنيران حامية لا يعرف مصدرها. ظل يصرخ في نفسه ويصرخ متمنّيًا الموت ليخلصه من كلّ هذا العذاب المفاجئ، ذلك الذي لا يتوقف لحظة واحدة. ظل يصرخ ويبكي بلا دموع، كيف له أن يبكي وعيناه مشغولتان

بالتنقل بين الصمت، والسكون، والزحام، والصخب.
لم يَدْرِ ماذا يفعل ليتخلص من كل هذا العذاب، فحتي الصراخ لم يعد له نفع، ولا منفعة! تمنّى أن يحتضر الآن وألّا يعود لهذه الحياة. دعا الله بكل خلية في قلبه وعقله أن يرسل له ملك الموت ليموت الآن، ويتخلص من كل هذا العذاب. ظلّ يدعو بكل دقة ونبضة في قلبه حتى أنهكه الدعاء. استسلم لملك الموت، وتهيَّأ للاحتضار، فلم يعد قادرًا على الدعاء، ولا الصراخ. وقبل أن يُحْتَضَرَ، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وقبل أن يستسلم لملك الموت الذي تخيّله عند رأسه ليأخذ بروحه ليخلصه من بين انتفاضات الصمت والصخب، فوجئ بيد ملاك حانية تربت على كتفه، وعينين ضاحكتين وشفتين مبتسمتين تطمئنه على نجاح العملية، وأنه أفاق من تأثير المخدر.

سمع تمتمة شفتَيِ الطبيب وهو ما زال مرتديًا البالطو الأبيض يقول: «مبروك نبيل بك نجاح العملية، وعادت إليك الحياة مرة أخري بعد أن كاد قلبك أن يتوقف عن الحياة، مبارك يا صديقي، ولكن فلتحافظ على قلبك وعلى لحظات حياتك».
لم يصدق د. نبيل، جرّاح المخ المشهور، نفسه بأن ما كان يعيشه منذ لحظات هو من فعل تأثير البنج الكلي الذي هَزّ عقله،

وجعله يترنّح بين الصمت والصخب كأرجوحة في فضاء العشوائية. حمد الله في قلبه، وشكر صديقه الطبيب جراح القلب بعينيه وهو ينوي أن يعيش الحياة بثوب جديد لا يعلمه إلا الله، ثمَّ هو.

نظر من زجاج غرفته لتسعد عيناه بزوجته وأطفاله وأصدقائه وأهله وهم يطمئنون علي عودة نبضات قلبه للحياة. امتلأت عيناه بصخب الفرحة، وعقله بهدوء وسكون البال قبل أن يستسلم لنوبة نومة مع أول جرعة من العلاج قبل أن يفيق مرة أخري لصخب الحياة بين العائلة، والأهل، والأصدقاء، والجيران.

مَرّ شهر على الجراحة، وتماثل د. نبيل للشفاء، وعاد قلبه ينبض بالحياة، وعقله يدق بالحكمة والعطاء. عاد مملوءًا بالفرحة وهي تجري أمامه نحو مرضاه في المستشفى الجامعي في الصباح، ومشفاه الخاص في المساء متنقّلًا بين الأدمغة، محاولاً إسعافها وعلاجها، كما لو كان كل واحد منها هي دماغه، الذي ذاق نوبات الصمت والصخب. ومن كثرة العطاء الطبي، لقبه مرضاه بـ «طبيب العطاء.»

وبعد شهر آخر من عودته للعمل، أصبح رمزًا للعطاء وسكن فيه للأبد صخب مواجع الحياة بعد أن أسكت مواجع الناس بين يديه.

مَشَاعِرُ بِلَا تَارِيخ صَلَاحِيَة

كان اليـوم عجيبًـا، النهـار عجيـب والشـمس أعجـب، والـزرع يـئنُّ مـن لهيـب الشـمس الحـارق، والميـاه في الأواني تغـلي في نفسهـا مـن دون نار تحتهـا. جمـع ياسـين ملابـس العمـل المُتْرِبـة، ووضعهـا في كيـس قمـاش، وحمـله عـلى كتفـه قاصـدًا العـودة إلى المـنزل. الساعة ما زالت الحادية عشرة، ولكـن الشـمس تلفح كل شيء على سطح الأرض. مـشى مهـرولًا في طريـق العـودة قبـل حلـول منتصـف النهـار؛ حتى لا يـذوب جلـده النحيـل مـن ضربات الشـمس الموجعـة. لم يَرَ أشـعة الشـمس تحـرق النهـار كاليـوم، حـتى أصبـح جِلـده كالخبـز المقـدَّد، وعينـاه تـبرزان مـن وجهـه كعَيْـنَيِ الضُفـدع المخنـوق. نظـر ياسـين إلى السـماء داعيًـا الله أن يخفـف كل هـذا الحـر وشـدة هـذا اللهيـب الـذي تصبُّـه السـماء عليـه باتفـاق مـع الشـمس، ومع الأرض، ومع النهار، ومع كل مخلوق سواه.

كان قـد أنهى عمـله في التَّـوِّ في هـذا المصنـع الـذي يبعـد عـن قريتـه سـاعة كامـلة، ومـع كل خطـوة كان يحـلم بأنـه قـد وصـل إلى مـنزله بجسده الهزيـل الـذي يحمـل عمـرًا لا يتجـاوز ١٢ عامًـا، وإن كان يشـعر بأنه رجل في الأربعين.

تنفّس الصّعداء عندما أنهى الطريق الفرعي الذي يفصل المصنع عن الطريق الرئيسي.

مع أنه يستمتع بقطع هذا الطريق كل يوم وهو يدندن في نفسه المُتعبة الأغاني التي يحفظها. خاصة أم كلثوم وعبد الحليم ووردة؛ كي تسلّيه، وتخفِّفَ عنه طول المشوار، إلّا أن ياسين شعر بأن شمس اليوم تجعل من هذا الطريق لعنة على الأقدام والوجه والرأس والجسد كله. ولكن ما باليد حيلة، فهو لا يملك حتى درّاجة يركبها، أو حِمارًا يركبه كمعظم الأطفال والصبية.

كلما مرت دراجة بجواره تمنَّى أن يتحقَّق حلمُهُ، ويمتلك مثلها في يومٍ من الأيام؛ كي يستمتع بمعانقة الهواء، ويرحم قدميه من لهيب الأرض، ويصل إلى المكان الذي يريده في أسرع وقت، وأقل مجهود. ولكن امتلاك الدراجة لصبي مثل ياسين حلم كبير. كم تمنَّى أن يصل إلى عتبة باب الدار! الآن ليرمي بنفسه وجسده الملتهب في حِجر والدته ليطفئ نار جسده واللهيب الذي يسكنه. آه يا أماه! أين أنت الآن بابتساماتك الضاحكة التي كل بسمة فيها كالنهر الجاري بمياهه الطيبة العذبة الصافية. تخيل ياسين أمه وأناملها تدغدغ شعر رأسه بمفعولها السحري الذي يزيل عنه أي شعور بالتعب، أو القلق، أو الخوف. تساءل ياسين في نفسه، والشمس تلفع رأسه وشعره الكثيف

المبتلّ بعرقه، هل يا تُري كل الأمهات كأمي، أم هي أم استثناء؟ ليتني الآن في حِجرك يا أمي؛ كي ينتهي كل هذا العذاب.

ياسين صبيٌّ بريءٌ لا يعرف في الحياة سوى أبيه وأمه وإخوته وبعض أقاربه. يقوم بهذا العمل الروتيني الشاق في هذا المصنع كل إجازة صيف، دون أن يدري لماذا، ولكنه صبي مطيع يؤدي ما يفعله بصدق وقوة وأمانة وإخلاص دون أن يشغل نفسه بمعرفة الأسباب.

ومع أن كل زملائه يعرفون- أو على الأقل يحاولون أن يعرفوا، أو يتظاهروا بأنهم يعرفون ما يفعلون ولماذا، إلَّا أنهم دائمًا مَحَطْ النقد والتوبيخ، وأحيانًا الضرب من رئيسهم لعدم إتقانهم العمل.

أما ياسين، فمعروف عنه إتقان عمله رغم أنه يعتقد في نفسه بأن كل ما يفعله هو مجرد مرحلة انتقالية ليس يدري من أين وإلى أين، وكان لا يبوح بذاك لأحد؛ مخافة اللوم والتوبيخ والاستهزاء بما يقول ببساطة؛ لأنه لن يفهمه أحدٌ حوله مهما كان. كان ذلك سببًا كافيًا لأن يكسب ياسين ود واحترام وتقدير المشرفين عليه في المصنع، رغم صِغر سِنِّه.. الأمر الذي قلَّما يحدث في هذه النوعية من الأعمال الشاقة، تلك التي تتطلب حزمًا من مشرفي العمل قد يصل أحيانًا إلى القسوة غير المبررة. إلَّا أن ياسين كان استثناء.

حاول ياسين أن يشغل عقله بعيدًا عن هذا اليوم القاسي على

هـذه الأرض السـاخنة الـتي لا ترحم أحـدًا ولـو كان صبيًّـا صغـيرًا مثـله. فأطلق خيـاله يتصور مـا يشـاء، فخيـاله هـو صديقـه الوحيـد، والمخلص وقت الأزمات. خياله هـو المدافع عنـه أمام الجميع، ولكـن دون أن يبـوح بأسراره لأحـد، إلَّا والدتـه، فهي الاسـتثناء في كل شيء.

أطلـق خيـاله في البنـت الـتي كثـيرًا مـا يحـاول اختـلاس النظـر إليهـا في فصـل المدرسـة وهـو في هـذا العمـر الـبريء. صبيـة هي عنـده ملكـة جمـال العـالم، الـذي لا يعـرف عنـه سـوى فصلـه الصغـير بمدرسـته الصغـيرة، في قريتـه الصغـيرة تلـك الـتي لا تمثـل في خريطـة العـالم سـوى ذرة مـن نقطـة مـاء تبخّـرت بفعـل حـرارة الشـمس القاسـية. ولكـن البنـت عنـده جميلة جميـلات العـالم، وإن كان لا يعرفـه. تمثـل أمامـه وجـه البنـت الضاحـك بملامحهـا البريئـة وابتسـامتها العذبـة الدافئـة في الشـتاء، والعليـلة في الصيـف.

ظـل ينظـر إلى عينيهـا في خجـل، بينـما هي تنظـر إليـه في كـبرياء! وكم يعشـق ياسـين هـذا الكـبرياء في عينيهـا البريئتـين! أمسـك الكيـس بيـده اليـسرى، ورفـع يـده اليمـني في الهـواء ليتحسـس وجههـا الجميـل بأطـراف أناملـه البريئـة، ولكـن وجههـا ذاب مع أشعة الشمس واختفي في الفضاء!

لم يشـعر ياسـين بأنـه مُحلّـقٌ في الخيـال إلّا عندمـا أفـاق عـلى صـوت جـرار هائـل، والسـائق يحـاول أن يتفـادى هـذا الطفـل

المجنـون الـذي يلـوّح بيديـه في الهـواء وسـط الطريـق دون أن يعبـأ بعـربات النقـل المسرعـة، أو الجـرارات المُحمَّـلة بمخلفـات المصانـع، أو أدوات العمـل. ولمـا أفـاق ياسـين شـعر بخجـل شـديد جعـله يتـوارى مـن هـذا السـائق الـذي لـولا انشـغاله لـنزل مـن الجـرار ليطرحـه أرضًـا ويلقنـه درسًـا لا ينسـاه مـدى الحيـاة عـلى اسـتهتاره. حمـد الله أن خيـاله لم يتسـبب في موتـه.. رغم موتـه في حـب ذلـك الوجـه الجميـل لفتاتـه المـدللة الـتي كم حـكى لوالدتـه عنهـا وعـن إحساسـه بهـا، وهي تضحـك عـلى براءتـه مـع وعدهـا بأن تخطبهـا له عندما يكبر وينهي الإعدادية.

رغم أنه حمد الله على سلامته من حادثة مؤكدة، إلّا أن صوت الجرار جعل ياسين يفكر في حلٍّ عبقريٍّ قد ينقذه من كل هذا الحر، والمشوار الطويل. تسـاءل ياسـين في نفسـه: لمـاذا لا أمسـك بمقطـورة أحـد هـذه الجـرارات مـن الخلـف دون أن يراني السـائق، وبهـذا أوفـر الوقـت والمجهـود، وأتجنّـب كلّ هـذا الحـر الرهيـب. راقـت له الفكـرة، واسـتعد لتنفيذهـا مع أول جرار قادم!

لم تمـر دقائـق حـتى وصـل جـرار ضخـم يجـرّ مقطـورة ضخمـة مملـوءة عـن آخرهـا بـتراب ناعـم... بسرعـة، ربـط ياسـين كيـس ملابـس العمـل في كتفـه، وظـل يجـري وراء المقطـورة حـتى أمسـك بهـا بكلتـا يديـه، فتعلـق بهـا ونجـح في التشـبث بأطرافهـا الحديديـة. انتـشى ياسـين،

وشعر بأنه طرزان يطير في الهواء في سعادة بالغة لم يُجرّبها من قبل. وتعجب: لماذا لا يفعل هذا كل يوم؟ لماذا يعذب نفسه؟ لماذا لم تواتِهِ هذه الفكرة من قبل؟ رغم أنه يرى كل الصبية يفعلونها والكثير منهم ينجحون في ذلك. وقبل أن يجيب عن تساؤلاته، لم يشعر ياسين إلّا وجسده يزحف على الأرض، وهو ممسكٌ بقوة في مقطورة الجرار. لم يَدْرِ ماذا حدث، ولكنه وجد نفسه مغطًّى بالتراب بعد أن انفتح فجأة الحاجز الخلفي الذي يمسك به!

لم يلحظ سائق الجرار ما حدث إلّا بعد دقائق عندما شعر بصوت التراب ينهال من المقطورة على الأرض وهو لا يدري بهول الموقف الذي حدث لياسين الذي لا يزال يحاول التشبث بالمقطورة التي تجرفه بسرعتها على أسفلت الطريق. تفتّت وتمزق قلب ياسين إربًا وهرب في كل أركان جسده؛ خوفًا من أن تفلت يداه فتدوسه أي عربة قادمة، أو ينكشف أمره وينال العقاب من السائق. ومن حسن حظه أن السائق قد توقف في وسط الطريق؛ كي يرى ما حدث ليجد مفاصل ياسين وأديم جِلده ينزف دمًا، وجسده كله مغطًّى بالتراب. وهكذا تحولت فكرة ياسين العبقرية إلى كابوس كبير لا يدري متى، وكيف سينتهي. نظر سائق الجرار إلى هذا الطفل البائس، فابتأس لحاله.. رغم

ثـورة الغضـب الهائـلة في عينيــه ويديــه، ولكنــه لم يشــأ أن يضربــه، واكتـفي بتوبيخـه وهـو يحمله بـين يديـه ليضعـه عـلى جانـب الطريـق.

انـصرف الرجـل تاركًا ياسـين يجـترّ آلامـه محـاولًا أن يلمـلم نفســه، ويزيح الـتراب مـن عـلى جســده. واكتشـف أن بنطلونـه وقميصـه قـد تمزّقـا، وكشـفا عـن الجـروح الـتي نالـت كل أجـزاء جســده. ضـاق بـه العـالم الواسـع حـتى كاد أن يختنـق مـن شـعور الألم والخـوف مـن والـده، ومـن الظهـور بهـذا الشـكل المـذري طـوال الطريـق حـتى يصـل إلى الـدار، ويواجـه مصير فعلتـه مـع والـده.

فكـر مـاذا يفعـل ليـداري جـروح جسـده وهـو يحبس كل آلامـه الـتي تـصرخ بداخـله. الغريـب أن صـورة الطفـلة الـتي يعشـقها بـدت له كخيــال أمــام عينيــه في الهــواء الســاخن الــذي يلفــح جســده، ففـرح بهـا، ولكنهـا اختفـت فجـأة ليظهـر له وجـه أمـه الطيـب الحنـون وهي تهدهـده، وتطبطـب عليـه وتمسـح جروحـه بحنـان بالـغ وهـو مُلْقَى عـلى صدرهـا. ولكـن سرعـان مـا اختـفي وجـه أمـه ليظهـر وجـه والـده بجِدِّيَّتِـهِ وعينـاه توبخانـه بشـدة بالغـة عـلى فعلتـه، تلـك الـتي أودت بملابسـه وبصحتـه وبشـكله العـام، وحـتى بكرامتـه. فكـر مـاذا يفعـل عـلى الأقـل كي يبـدو بـلا جـروح، ويكـتم آلامـه بداخـله، ولكـن لم تكـن هنـاك حلـول جاهـزة. وفجـأة لمعـت في ذهنـه فكـرة يبـدو تطبيقهـا غريبًـا، ولكنهـا قـد تـداري عـلى

ما حدث، وبدأ على الفور في تنفيذ الفكرة على مضض.

نزل في جرف (بطن) الطريق، وخلع ملابسه الممزقة، ووضعها في الكيس الأسمر، وأخرج منه ملابس العمل القديمة المتربة. ولو صادف وكان والده موجودًا في المنزل، وسأله عن سبب هذا المنظر المذري، فالإجابة جاهزة: «انتهيت من عملي في التّوّ ولم يكن لدَيَّ وقتٌ لاستبدال ملابسي؛ بسبب الحر الشديد». ومن يدري، فقد يُعجب هذا الرد والدي؛ لأنه رجل عملي وقد يُغضبه؛ لأنه رجل نزيه ويُحب «شياكة» المنظر. أيًا كان موقف والده، فسوف يكون أقلّ حدّة ممّا لو عَلِمَ بما حدث. أما أمه، فسوف تستقبله بحنان زائد عندما تراه هكذا، وبذلك يكون قد تجنَّب عقاب والده، وكسب حنانًا زائدًا من والدته. ومع أن هذه الفكرة راقت لياسين ونفذها بالفعل -لعدم وجود بديل- إلّا أنه عندما اقترب من حدود قريته كان ينكمش في نفسه تارة خوفًا من أن تلمحه فتاته هكذا، وتارة يشدّ من عوده عندما يلمحه أحد رجال القرية، أو أحد الصبية الذين يعرفونه. ظل هكذا في قلقٍ وخوفٍ وخجلٍ شديدٍ ممّا هو عليه حتى وصل إلي الدار، فتنفّس الصّعداء حتى يتوارى بسرعة عن الجميع داعيًا الله بكلِّ الدعوات التي حفظها في المسجد والمدرسة والشارع ألّا يكون والده في الدار.

وهو بالقرب من الدار، سمع «زغاريد» وصيحات التهاني من نسوة ورجال وشباب الشارع هنا وحزن هناك. تعجب، ما السبب وراء هذه الأفراح والأحزان في وقت واحد؟ وشارع واحد على غير العادة. ولما سأل أخبروه أن نتيجة شهادة الابتدائية ظهرت هذا الصباح. وهنا وقع قلب ياسين في صدره، وازداد خوفه على مصير اليوم والمستقبل. تذكر على الفور كلمات أبيه الجادة منذ شهور عند بدء العام الدراسي: «إن لم تنجح وبمجموع يا ياسين، انْسَ الدراسة، وركّزْ في عملك بالمصنع»!

وعندما تذكَّر تلك الكلمات التي كان قد نسيها بسبب العمل ومتاعبه، ذاب في نفسه الآن؛ خوفًا من رسوبه. رغم أنه يشعر بثقة بالغة بأنه ناجح، ولكنه الخوف من المجهول بعيدًا عن التوقعات خاصةً أن هناك الكثير من الأحزان في الشارع. ياسين من الأطفال المطيعين الخجولين، حيث إنه يعكف بجدية على دراسته؛ ليس خوفًا من والده في المقام الأول، ولكنْ لحبه الشديد لمواد الدراسة، وخاصة العلوم والتاريخ، فهما له العالم الفسيح الذي يبحر فيهما بخيالاته وأفكاره وأمنياته. فهو يجد نفسه هناك مختلفًا ويشعر بذاته.. ولِمَ لا؟ وهو الذي يعلم كلما قرأ وتعلم. ثم إن التعليم لياسين فرصة هائلة ووحيدة للخروج من البقاء في أعمال المصانع.. تلك التي لا يتمنى

أبـدًا أن يقـضي بقيـة حياتـه فيهـا، رغم إتقانـه العمـل، وتفوُّقـه فيـه. ببسـاطة، كان ياسـين يري نفسـه مختلفًـا، لا يـدري لمـاذا، ولذلـك اشـتد خوفـه، وارتعشـت فرائصـه؛ خوفًـا مـن ضيـاع مستقبله إذا كانت نتيجة اليوم رسوبًا.

اقـترب مـن الـدار، وقلبـه يرتجـف في صـدره؛ ليـس فقـط بسـبب الهيئـة الـتي يبـدو عليهـا.. تلـك الـتي نال بسـببها العديـد مـن التعليقـات «السخيفة» حتى من أصدقائه في الشـارع؛ ولكن السـبب الأهم هـو النتيجـة. ومـا أن وصـل المـنزل حـتى وجـد والـده يقـف في البلكونـة، وأمـه تجلـس في مدخـل الـدار، ورجـل هنـاك شـديد السـمنة يرتـدي «جلابيـة» أنيقـة، ويتحـدث مـع والـده بجَدِّيَّـةٍ وصوتٍ لا يتبيَّنه.

ولمـا اقـترب ياسـين مـن الرجـل عرفـه، فهـو الأسـتاذ الـذي يـدرس له معظـم المـواد، والمعـروف عنـه قـوة الشـكيمة والشـخصية والجَدِّيَّـة. يا تُري، مـاذا جـاء بـه إلى هنـا الآن؟ أخـير أم شر؟ وقـع قلـب ياسـين مـن القلـق خاصـة أن مـلامح والـده تبـدو عليهـا الجَدِّيَّـة المطلقـة. ومـا أن بـدا ياسـين بشـحمه ولحمـه لوالـده والأسـتاذ وأمـه، حـتى شهـق الرجـل في وجـه ياسـين: «مـاذا بـك يا ياسـين؟ لمـاذا تبـدو هكـذا؟ خاصـة أن اليـوم هـو موعـد إعـلان نتيجـة شهادة الابتدائية». تلعثم ياسين، ولم يستطع الرد.

صاحت أمه: «مالك يا حبيبي يا نور عيني؟ لابس هدوم الشغل ليه؟».
وتدخل والده «ما هذا يا ياسين؟ إزاي تيجي بهدوم الشغل؟ إنتَ عندك هدوم محترمة، إيه اللي حصل؟ عرفني!»
وهنا تدخل الأستاذ قائلًا «دع ياسين يلبس ما يشاء، وما يرتديه الآن هو فخر له، وفخر لي، وفخر لكم، وهذا يجعلني لا أندم على حضوري بنفسي اليوم لهذا المنزل خاصة اليوم؛ أنا فخور بك يا ياسين، ادخل غير ملابسك بسرعة وتعالَ».
وهنا، تدخل والد ياسين، وأصرّ على أن يعرف سبب مجيء الأستاذ، وأن يبقى ياسين طالما الأمر متعلق به، ولم يعبأ والده الآن كيف يبدو ابنه، ولكن يريد معرفة نتيجة ابنه؛ وسبب مجيء الرجل.
وهنا أمسك الأستاذ، قوي الشكيمة بطبعه، بيد ياسين التي كانت العروق ترتجف بها، ووقف وعيناه في عينيه في حنان بالغ ليقول له وبصوتٍ رخيم عالٍ: «مبروك يا ياسين لقد نجحت يا بني في شهادة الابتدائية بتفوق وأنت رقم ٢ على كل طلاب القرية؛ ولذلك جئت لأبارك لك بنفسي، وأقبّل وجنتيك، وأبارك لوالديك، وبعد ما رأيتك الآن يا ياسين بملابس العمل هذه، فسوف أقبل رأسك وليس فقط وجنتيك».
لم يصدق ياسين نفسه من الفرحة. صحيح أنه ذاكر بجد واجتهاد وإخلاص، وكان واثقاً من نجاحه، إلَّا أن هذا التفوق الكاسح

وفي أول شهادة دراسية له في الحياة وقدوم المدرس بنفسه كي يبارك له أمام أمه وأبيه لم يكن يتوقعه. وبالفعل قبّل الأستاذ وجنتي وجبين ياسين وأعطاه ٥ جنيهات، ففرح بها فرحًا لا يوصف. وعلي الفور قبَّل ياسين يد أستاذه كما اعتاد أن يُقبل يد والده كل صباح. لم يصدق والده ما يسمع، فهذه أول مرة يتفوق فيها أحد أبنائه، وفي هذا العمر الصغير، لم يحدث أن عاش هذه اللحظات التاريخية من قبل، وهو الذي كان لا ينوي أن يُكمل ياسين دراسته. ورغم خطة الوالد التي كان قد أعدَّها مسبقًا لياسين بعيدًا عن مشوار التعليم، إلا أنه فرح فرحة عارمة عبّر عنها بأن قبّل جبين ياسين، وابتسم له وضمَّه في صدره لتكون تلك الضمة مفتاحًا لياسين أن يكمل تعليمه في الإعدادية. وعلى الفور أمر والده بإعداد وتوزيع الشربات والكوكاكولا على أهل الشارع. وتحولت الدار إلى ساحة أفراح وتهنئة وزغاريد بعد أن علم الجميع بتفوق ياسين.

تعجب من القدر الذي جعل تفوقه وحضور أستاذه ورضاء والده في اللحظة نفسها التي كان قلبه يرتجف خوفاً من حادثة اليوم المميتة. تعجب لهذا القدر الجميل الذي يحول الهموم والقلق إلى أفراح من الدرجة الأولي.

جرى كي يرتمي بفرحته في حُضن أمه التي أمطرته بالقبلات والدعوات والأحضان حتى أترب ملابسها بملابسه المُتربة، ولكن

كان هذا التراب هو سر التميز والتفوق، وسر تحوّل قرار الأب، وسر حنان الأم الذي يغمره ويحميه ويميزه وتغذيه. تمنى أن تأتي فتاته الآن لتفرح معه وتفتخر به. بدا وجهها مبتسمًا أمامه، ولكن سرعان ما اختفت كعادتها، وكأنه يستدعيها من خيالاته كلما شعر بضيق أو بفرح. سألته أمه وضحكتها تسبق كلماتها: «قوللي إيه الحكاية يا ولا، ما تخبيش عليّا، إيه اللي حصل في هدومك، شكلك عملت عاملة».

ضحك، وكتم آلامه في جروحه حتى لا يشعر به أحد على الأقل الآن. همس في أذنيها ليخبرها بالحقيقة بطريقته حتى لا تقلق عليه. صدقت أمه قصته ودعت له وشدته من يديه إلى داخل الدار ليبدل ملابسه؛ كي يظهر في أحسن صورة، فاليوم يومه والنجاح نجاحه وليشرب الشربات.

ظل والده في الخارج يتلقى التبريكات من الجيران وبجواره الأستاذ قوي الشكيمة حنون القلب. ونسي الوالد أمر ملابس ياسين، وامتلأ قلبه بحبٍّ غامرٍ له ظل يكبر بداخله حتى توفّاه اللهُ، فقد كان له هذا الابن الذي يجب عليه أن يفتخر به، ولا يقاوم طموحه مهما كان.

سيداتي آنساتي سادتي، تلك هي قصة الدكتور ياسين الواقف على المسرح الآن أمامكم كي يستلم جائزة «العالم المثالي» لهذا العام. الجائزة التي تشرفت به.. ليس فقط بإنجازاته وسمعته

العلمية التي أضافت للبشرية بعداً آخر في العلم، ولكن تشرفت بتاريخه الذي أضاف للبشرية بعدًا آخر للإنسانية. في الواقع، لم تكن تلك القصة هي الوحيدة التي تميز بها تاريخ د. ياسين منذ طفولته وقبل أن يسلك مشواره في العلم، ولكن هناك مئات القصص الأخرى التي تجعله رمزًا في الكفاح والتصميم. ليس فقط على النجاح، ولكن على التميز المقصود. سيداتي آنساتي سادتي، لقد اخترنا تلك القصة، والتي لم يعلم د. ياسين بنشرها الآن ونحن نقدمه إليكم، ليس لأنها الأعمق والأكثر تأثيرًا ورمزية؛ ولكن لأنها تعكس دور الأب والأم والأستاذ في حياة كل متميز. فالتميز له رأس وأذرع وأرجل وقلب وعقل لا يعيش بدونهما أو بمرض أحدهما. ولكننا هنا قد رأينا كيف تتمدد جذور التميز في الأرض لتحمل جسد التميز والإبداع. مبارك د. ياسين الفوز بالجائزة، وبتاريخك المشرف. ولك منا جميعًا تصفيق حاد.

انبهر الجميع بقصة د. ياسين، واستمروا في نوبة تصفيق حاد. وهنا جاء دوره ليتحدث عن أهم أعماله أمام الجميع بعد أن استدعي وجه فتاته من خيالاته ثم تختفي كعادتها وتتركه يبحر في أعماق بحار إنجازاته التي جعلت منه د. ياسين ذلك الذي لا يزال يبحث عن تلك الفتاة.

بطاقة الصداقة

لم يكن يومًا عاديًّا في كل تفاصيله، فهو يوم يَصلح لِأَن يُخَصّص للاحتفال باليوم العالمي للمزاج العالي، والهدوء، وراحة البال. تحسست جيوب بنطلوني الأسود الجديد، ذلك الذي ارتديه في المناسبات؛ لأطمئن على وجود المنديل القماشي الذي تعوّدت أن أستعين به في مسح حبات العرق المتحدّرة على جبيني في حالات الحرج المفاجئ.

تحسست محفظتي؛ لأتأكد من وجودها بما فيها من بطاقتي الشخصية وكارنيه الكلية الذي كنت قد استخرجته منذ شهر واحد فقط هو عمر التحاقي بالجامعة. الكارنيه الذي كان يمثل لي رخصة قيادة في هذا العالم الواسع المدجَّج بكل طبقات المجتمع التي ترى نفسها وقد لا ترى الآخرين.

ورغم أنّي نظرت في المرآة قبل خروجي من المنزل، إلا أنني تحسَّست تصفيفه شعري الكثيف، وأن أتأكد من أن كل خصلة شعر في مكانها الذي أحبه.

كنت نحيفًا لدرجة أنّي كنت حريصًا كلّ عدة دقائق على أن أتحسَّس القميص؛ لأتأكد من أنه ما زال تحت الحزام فوق بنطلوني الأنيق.

مشيت وبداخلي فرحة، بل نشوة جعلتني أسبق خطواتي بحذائي الأسود الذي يبرق تحت أشعة الشمس القادمة من السماء الصافية؛ لتغازل ملامحي برفق، ونسمات الهواء بجانبي وأمامي تُصرّ أن تتأبّط ذراعي؛ لتحتوي فرحتي التي تملأني من منبت رأسي حتى أخمص قدمي.
شعرت بأن العالم بأجمعه ينتظرني هناك ليستقبلني فور وصولي؛ ليرحب بي، ويهنئني على سلامة الوصول، ويصفق لي فور دخولي قاعة الحفل التي دُعيت إليها من أحد أصدقائي من العائلات الأرستقراطية، فقد كانت تجمعنا علاقة صداقة رغم كل الفوارق الشخصية والمالية والاجتماعية.
جعلتني هذه الدعوة الشفهية أشعر وكأني أحد الرجال المهمين في هذه المدينة، بل في هذا العالم أجمع، كيف لا وأنا مَدْعُوٌّ لحضور احتفال مَهيب يحضره عِلْيَةُ القوم كما أخبرني صديقي أثناء دعوته لي.
أخبرته بأنّي لن أشعر بأريحية؛ بسبب خجلي، وعدم اعتيادي على حضور هذا النوع من الحفلات، إلّا أنه أصر- وبشدة- على دعوتي، وضرورة حضوري؛ كي أكون بجواره.
صعدت السلالم في ثقة وهدوء، رغم كل مشاعر القلق التي أكتمها بداخلي.. وكلما اقتربت من بَهْو مكان الحفل لاحظت قدوم العديد من الرجال الذين يرتدون البدلات الأنيقة التي تضفي مزيدًا من المهابة والرُّقِيّ على أصحابها، ولاحظت النساء اللّاتي

يرتـدين الفسـاتين.. تلـك الـتي تضـفي عليهـن فتنـة، وجمـالًا خلّابًا يأسر العقول.

وعلى الفور أخرجت المنديل القماشي من جيبي؛ لأمسح حبّات العرق التي تحدّرت على جبيني.. وكأنه شعر بما يدور بداخلي؛ ولأني غريب، وأتيت وحدي، فلم أنتظر من الرجال الذين مرُّوا بجانبي تحية، أو سلامًا. كما رأيتهم يتبادلون التحية مع بعضهم بعضًا.

وبعد خطوات قليلة أصبحت أمام الباب الرئيسي لبَهْوِ الاحتفال. الباب يبدو أنيقًا، مرتفعًا، واسعًا، ولامعًا ببريق تعكسه عيون المدعُوّين الذين يمرّون منه بخِفَّةٍ وشياكة وثقة عالية، وكأنهم أصحاب المكان، ويعرفون طريقهم في الداخل بسهولة ويُسْر في صحبة أحد أصحاب الحفل. الباب مفتوح، ولكن عليه أربعة من الشباب ممشوقي القوام، وفي زيٍّ رسميٍّ يعكس نظرة أسطورية على الباب وما وراءه داخل بهو الاحتفال الذي يبدو لي من الخارج أسطوريًّا بصورة لم أرَها قبل اليوم. وقفت في صف المدعُوّين ببنطلوني الأسود، وقميصي الأبيض، وساعة يدي «الأورينت» الجديدة، ويدي على منديلي القماشي في جيبي وكأنه سلاحي الذي أستمد منه القوة، ويعطيني طمأنينة وأمانًا في الحالات الحرجة.

وبعد لحظات قليلة، وجدت نفسي أمام الباب الأسطوري مباشرة. رَحَّبَ بي الشاب الأنيق بأسلوب راقٍ، فبادلته التحية بأناقة ورُقِي

يليق به وبالمكان والاحتفال، وبصديقي الذي أهداني هذه الفرصة التاريخية والأولى في حياتي، ولما هممت بالدخول من الباب أومأ إليَّ الشاب بالانتظار لحظة، وطلب مني بطاقة الدعوة. أخبرته بأنّي لا أملك بطاقة للدعوة؛ لأنها كانت شفهية.

ابتسم الشاب في هدوء وثقة، وأعاد عليَّ طلب إعطائه تلك البطاقة، فأعدت إجابتي بثقة وهدوء.. فالمؤكد هو أن صديقي بالداخل، وأنه سيأتي ليحلّ المعضلة إذا لزم الأمر. ولما أصَرّ عليَّ بطلبه أمام صف المدعوين ورائي، شعرت بخجل شديد، وأخرجت منديلي استعدادًا لمسح حبات العرق التي بدأت أشعر بها تجري تحت أديم ملامحي. حاولت أن أشرح له صلتي بـ»هشام» ابن صاحب هذا الحفل المهيب، وأنَّ عليه أن يدخل فيسأله بنفسه، فهو مؤكد بالداخل ينتظر حضوري، ولكن الشاب الأنيق ردَّ بجدِّيَّة وصرامة مغلّفة بابتسامة مهذبة: «لا يوجد هنا حضرتك أحد اسمه هشام، وليس للباشا صاحب الحفل ابن اسمه هشام»! تعجبت، وحاولت أن أؤكد له صدق قولي ودعوتي، ولكنه لم يستمع، وطلب مني التنحّي عن الصف من أمام بهو الاحتفال؛ حتى لا أتسبَّب في تعطيل دخول السادة المدعوين.

لمحت هِشَامًا يتحرك بين المدعوين في الداخل بخِفّةٍ ودلالٍ وثقةٍ في بذلته الأنيقة، فانشرح قلبي، وناديت عليه حتى ينقذني من هذا الموقف المخجل، ولكنه لم ينتبه، ولم يسمعني، أو لم يُلق بالًا بندائي!

تذكرت بطاقة الجامعة، فأخرجتها بسرعة، وأعطيتها للشاب؛ ليكون خير دليل ومعين على صدقي ومكانتي كطالب جامعي حتى وإن كنت لا أرتدي بذلة، ورابطة عنق.

أمسك الشاب البطاقة، وتمعّن فيها، ثم ابتسم ابتسامة أدركت على الفور ما وراءها، وأعاد طلبه لي بالتنحي عن الصف، ولكن كانت نظراته ونبرة صوته هذه المرة أكثر حزمًا، أخذت منه البطاقة، ووضعته في مكانه في محفظتي، وأخرجت منديلي القماشي؛ لأمسح حبات العرق من على جبيني الثائر في صمت.

هذه المرة آثرت أن أحفظ ما تبقى من كرامتي، وخرجت من الطابور الأنيق، وعدت أدراجي من حيث أتيت والمنديل القماشي بين يدي وبين جبيني، والبطاقة في مكانها بمحفظتي، ومشاعري تئِنّ في قلبي، وأفكاري المتهافتة المختلطة تثور في عقلي.

مشـيت في الشـارع الواسـع أبحـث عـن الشـمس في السماء؛ لأعاتبهـا وأحتـمي بهـا، ولكـني وجـدت الشـمس قـد غربـت وفي سـبيلها للغـوص في مـاء النيـل الزرقـاء عـبر مباليـة، لا بأناقـة الرجـال، أو فتنـة النسـاء، ولا بالوعـود، ولا الدعـوات، ولا البطاقات أيًّا كانت أصحابها.

جـرت كلّ تلـك الأحـداث المتتاليـة أمـام عيـنَيّ دفعـة واحـدة- وبسرعة فائقة- وأنا أدخل من باب البهو الأسطوري الذي لا يزال محتفظًا بأناقتـه وجمـاله، وبريقـه ولونـه العـاجي. رغم مـرور أكـثر من ثلاثـين عامًا. أفسـح لي الشـاب المـكان، وسـبقني بالدخـول مـن البـاب هاشًّـا ومرحبًّـا، ومداعبًـا بقـوله: أراك منشـغل البـال سـيدي، وسرحـت، وابتعدت عنه بعض الشيء.

ابتسـمت في نفسي ابتسـامة حملـت بداخلهـا أحـداث مـا يزيـد عـن ثلاثـين عامًـا مـرت عـلى وقـوفي في المـكان نفسـه أمـام البـاب نفسـه عندمـا خرجـت مـن صـف المدعـوين بحجـة عـدم وجـود بطاقـة الدعـوة مـعي، وكيـف أن بطاقـة الجامعـة لم تشـفع لي وقتهـا. ومـا زالـت الابتسـامة تمـلأ شـفتَيّ، أخرجـت بطاقـة الجامعـة؛ لأعطيهـا للشـاب عـلى البـاب. شـعر الرجـل بخجـل شـديد، وتعجّـب لمـاذا أعطيـه البطاقـة، ولكنـه لا يـدري أنّي أعطيـه أحـداث ثلاثـين عامًـا تنـام في هـذه البطاقـة العتيقـة.

لم ينظر الشاب فيها، وأعادها لي في خجل شديد وهو يحاول أن يخفي علامات التعجب التي تجري على ملامحه.
دخلت بهو الاحتفال ببذلتي الأنيقة أبحث عن صديقي هشام وأنا أتلقّى الترحيب من المدعُوّين، ولكنّي بالطبع لم أجده هناك، فقد كان هنا منذ ثلاثين عامًا، واختفى.
ابتسمت لصديقي بحنان بالغ، وحبٍّ عميق... جلست أمامه كالطفل الصغير مستمعًا لقصته، تلك التي يقصها على مسامعي في التوقيت نفسه كلّ عام ونحن نحتفل بعيد ميلاده.
وعندما توقف صديقي عن الكلام سألته: وهل لا تزال تتذكر هشامًا؟!
ردَّ بعفْويَّةٍ حالمة: نعم يا صديقي، لا أزال أبحث عنه؛ لأشكره عمّا فعل بي منذ أكثر من ثلاثين عامًا. فقد كان الموقف الذي وضعني فيه وراء تفوّقي وتميّزي، وأضحَى سببًا في التخلي عن منديلي القماشي، وفي احتفاظي ببطاقة كُلِّيَّتي العتيقة حتى الآن.
قلت مازحًا، ولكن لا تنسَ أن اسمي هشام. ردَّ ضاحكًا: بالطبع صديقي؛ ولذلك أحببتك، ولك وحدك أقصّ عليك حكايتي.

نُبْذَةٌ عَنْ الكاتب

د. لبيب أستاذ وباحث في علم المناعة، وخاصة مجال العلاج المناعي للأورام، وكاتب، وروائي، وشاعر، وعضو اتحاد كُتَّاب مصر، وتم نشر العديد من الكتب العلمية في تبسيط العلوم والعديد من الروايات والقصص القصيرة من أهمها: وقت للبيع، كاندليه، الرصاصة الجينية، العشق الحلال، زحمة مشاعر، مشاعر آيلة للسقوط، سور الخوف العظيم، سفاري إلى الجهاز المناعي، زواج بويضة، تأملات في فيروس كورونا، وتأملات في بيولوجيا النفس، حكايتي مع صديقي القط، الابتلاءات في حياة الأنبياء. كما أنه نشر أكثر من ٢٥٠ من المقالات الأدبية، والفكرية، وتبسيط العلوم، وتطوير الذات بمختلف دور النشر العربية.

e-mail: mohamedlabibsalem@yahoo.com

الأعمال المنشورة للكاتب:

وقت للبيع: رواية عن دار أطلس للنشر والتوزيع ٢٠١٤م.

العشق الحلال: مجموعة قصصية عن دار أطلس للنشر والتوزيع ٢٠١٥م.

زحمة مشاعر: مجموعة قصصية عن دار أطلس للنشر والتوزيع ٢٠١٦ م.

كاندليه: رواية عن دار أطلس للنشر والتوزيع ٢٠١٧ م.

الرصاصة الجينية: رواية – دار النابغة ٢٠١٩ م.

مشاعر آيلة للسقوط: مجموعة قصصية - دار كيانك- ٢٠٢١م.

سور الخوف العظيم: مجموعة قصصية - دار كيانك- ٢٠٢١م.

زواج بويضة: سلسلة المكتبة العلمية - كتب علمية مبسَّطة. الناشر: أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا -مصر - ٢٠١٩ م.

سفاري إلى الجهاز المناعي: سلسلة المكتبة العلمية - كتب علمية مبسطة. الناشر: أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا - مصر - ٢٠١٨ م.

حكايتي مع صديقي القط: دار كيانك- مصر ٢٠٢١م.

علم المناعة والأمصال والتطبيقات: دار كيانك- مصر ٢٠٢٢ م.

تأملات في فيروس كورونا: دار كيانك- مصر ٢٠٢٢م .

وتأملات في بيولوجيا النفس: منصة أريد – ماليزيا ٢٠٢٤

ابتلاءات في حياة الأنبياء. دار كيانك- مصر ٢٠٢٢م.

الفهـــرس



دار جينيال للنشر

٥٩ ش أنور مع عثمان بن عفان برج المودة - طنطا - محافظة الغربية
تليفـــــون : ٠٤٠٣٣٣٠٩٧٤ / ٠١٠١٠٨١٠١٠٢ / ٠١٠٠٩٣٥٨١٤٩
إيمـــــيل : *mamdouhelguindy@yahoo.com*